أضواء على حياة ابن خلدون وفلسفته



ابن خلدون

ابن خلدون أحد كبار المؤرخين والمفكرين الاسلاميين ، وقد اعترف بفضله وقدر مكانته طائفة من علماء الاجتمـــاع والمؤرخين الغربيين لهم مكانتهم ، فى طليعتهم المفكر العلامة الاسكتلندى روبرت فلنت والمؤرخ الفيلســوف توينبى وعالم الاجتماع بوتول ومؤلف كتـــاب الفلســـفات الاجتماعية المفكر سوروكين والمستشرق جيب وغيرهم من الباحثين المنصفين والعلماء الاثبات ٠

وقد كان التفكير فى طبيعة التاريخ وهدفه وطريقة كتابته من المسائل التى عنى بها المسلمون منْ أول نشأة الاسلام ، وقد بعثهم على ذلك ان القرآن الكريم نفسه فيه اشارات تاريخية تدعو الى التفكير والعظة ، فهو يذكرنا بمصارع بعض الامم الخاليـة ويحذرنا من التورط فى الآثام التى دعت الى تخلف تلك الأمم وذهاب ريحها ، وهى بوجه عام اشارات موجزة تؤكد ان الحياة الانسانية فانية وان الدنيـــا متـــاع الغرور وتحض على الاستمساك بالفضائل وتحرى الصدق والتزام العـدل ، وفى الأحاديث النبوية كذلك حض على العناية بالتاريخ والاستفادة من تجاربه وأحكامه٠

ولما اتسعت الفتوحات الاسلامية فى القرن السابع والثامن الميلاديين تكاثرت المادة التاريخية وأصبحت بذور التفكير التـــاريخى التى كانت كامنة ضمن الآيات القرآنية والاحاديث النبوية مزدهرة ، وفرغ الكثيرون

بقلم
علي أدهم

من العلماء والمحدثين لممارسة كتابة التـــاريخ ، ولكن هذه التفــكيرات التاريخية لم تنظم تنظيما مستقلا ، كان بعض المؤرخين يشيرون فى مقدمة كتبهم اشارات عارضة الى قيمة التاريخ وفضله ويذكرون بوجه عام واجبات المؤرخين من ناحية تحرى الصدق والأمانة فى النقل ٠

وكان لجمع الاحاديث النبوية وتحقيق نسبتها والتأكد من صحتها أثر كبير فى تقدم البحوث التاريخية والعناية بالتاريخ ٠

وقد لوحظ أن أكثر عناية جامعي الحديث كانت موجهة بصورة عامة الى التحقق من صحة الاسناد ، وكان ذلك مصدر مسألة الجرح والتعديل ، وتحرى اخبار رجال الحديث وتوثيقهم ، أما نقد الاحاديث فى حد ذاتهـا فلم يلق من العناية ما لقيته محاولة تحرى صحة السند ، ولذلك نرى مؤرخا مثل الطبرى الذى تأثر بطريقة المحدثين يقول فى مقــدمة كتابه العظيم ما معناه أنه يروى الاخبار تاركا عهدتها على الرواة أنفسهم ٠

على ان هذه الطريقة لم تعجب المفكرين الذين جاءوا بعد ذلك ورأوا انه لابد من عرض الامور الدنيوية جميعها على العقل ، وكان للمعتزلة فضل هذا التوجيه فى التفكير الاسلامى ، وقد مهدت هذه الحركات الفكريةسواء من ناحية المحافظين أو من ناحية المجددين السبيل لظهــور ابن خلدون المفكر الذى حاول ان يخضع التاريخ للعقل ، وتجعل منه علما يعتمد على قوانينه ، ويستفاد من تجاربه ، وقد اعترف له الباحثون فى فلسفة التاريخ بأن مقدمته لكتابه عن التاريخ من خير ما كتب فى فلسفة التاريخ ، بل عدها بعضهم مثل الاستاذ روبرت فلنت فى طليعة البحوث الحافلة الحديثة فى فلسفة التاريخ ، وقال عن ابن خلدون « أول كاتب تناول التـــاريخ باعتباره موضوعا مناسبا لعلم خاص كان ابنخلدون ، أما كونه يعد من أجل ذلك موجد علم التاريخ فهى مسألة قد تختلف فيهـــا الآراء » وهى شهادة جديرة بالتسجيل منعالم جليل متمكن من دراسة موضوعه وواسع الاطلاع فيه الى حد يفوق المألوف ٠

وكتاب الاستاذ عنان وكتاب الدكتور عبد الواحد يلقيان ضــوءا باهرا على حياة ابن خلدون ، ويعدان من المراجع الهامة فى دراسته ، وقد عنى الاستاذ عنان بوجه خاص بابن خلدون المؤرخ كما وجه الدكتور عبد الواحد عنايته الى ابن خلدون بوصفه واضع أساس علم الاجتماع ، وافاد الباحثان القديران فى تناولهما لحياة ابن خلدون مما كتبه الرجل عن حياته الحافلة بالحوادث والمغامرات فى كتابه الشـائق « التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا » وهو من التراجم الذاتية الوافية فى الادب العربى ، وبعض المؤرخين الذين سبقوا ابن خلدون الى الترجمة لأنفســـهم كانوا يذكرون أخبار حياتهم بطريقة موجزة فى مقدمة كتبهم كما فعل ياقوت الحموى فى كتابه « معجم الأدباء » والسيوطى فى « حسن المحاضرة فى أخبار مصر القاهرة » وكما فعل معاصره لسان الدين ابن الخطيب فى كتاب « الاحاطة فى أخبار غرناطة » وكما فعل بعدهم المقرى فى كتاب « نفح الطيب » أما ابن خلدون فقد افرد لحياته كتابا مطولا وجعلها موضوع بحث مستفيض ٠ وهو من هذه الناحية غير مسبوق فيما أعلم ، وقد اختلط

تاريخ ابن خلدون بتاريخ عصره ، ولذلك وجد مادة وافرة ليملأ بهـ
الكتاب ، وهو يحدثنا في هذا الكتاب عن نسبة وتاريخ أسرته ومختلـ
أدوار حياته وأسفاره وتنقلاته ما ولي من المناصب وما عالج من المشكلا
ولا نزاع في ان ابن خلدون كان رجلا قوي الشخصية بارز المكـ
بين أعلام عصره ، شــديد الشعور بتفوقه وامتيازه ، كثير التجـا
والمغامرات ، وترجمته لحياته تشف عن الكثير من الصفات التي اشـ
بها ، ففيها ثقته العظيمة بنفسه ، واعتزازه بقــدرته ، وهو يتحدث
شيء من الزهو والخيلاء عما لقيه في حياته من التكريم والاعجاب والتقد
ويقول عن نفسه انه سليل أسرة عريقة نابهة وبيت من بيوت الريا
والسياسة في الأندلس ، ويرجع تاريخ أسرته الى عهد فتح الأندلس
ويقول انها يمنية الاصل ، وان اجداده ظهروا على مسرح الحوادث ظهـ
بارزا في أواخر القرن الثالث الهجري في عهد أمير الأندلس عبــد
ابن محمد ، وقد استقل أحد أجداده بامارة اشبيلية وقتل بعــد ذلـ
واستشهد بعد أفراد اسرته في واقعة الزلاقة المشهورة التي حدثت ،
٤٧٩ هجرية ، ولما ضعفتدولة الموحدين في المغرب واضــطربت أ
الأندلس واستولى الاسبانيون على معظم ثغورها وحواضرها آثر بنو خلـ
الرحيل من الاندلس ، فنزحوا الى تونس ، وتقلب أفراد من الاسرة
مناصب الحجابة والوزارة ، ويمكن ان نستخلص من ذلك ان ابن خلـ
كان يجد من مكانة أسرته وماضيها وقوة تفكيره وغزارة علمه ما يدفعه
طلب المجد ، وحب السيطرة والنفوذ ، وقد كانت حيــاته حافلة
بالحوادث ، فقد اشتغل الرجل بالأدب والسياسة والقضاء ، وخدم ،
عصره وامراءه ، واتصل بهم اتصالا وثيقا ، وعرف بواطن الامور ، ود
السياسة ، ورافق الدول وصحبالجيوش ، واستهدفللدسائس والمـ
وتعرض للأخطار والشدائد ، وتنقل في العواصم الزاهرة والبوادي الـ
ودخل الأندلس ،وسفر بها بين السلطان ابن الأحمر وملك قشتالة بـ
المشهور بالقاسي ، وهو يقول ان ملك قشتالة عامله من الكرامة بما لا
عليه وعلم أولية سلفه باشبيلية وطلب منه المقام عنده وان يرد عليه
سلفه ، وكان ابن خلدون اينما حل يثير حسد الحساد وكيد الكائد
وقد كان بينه وبين لسان الدين بن الخطيب وزير السلطان ابن الـ
صداقة ومودة ، وبرغم ذلك فانه حينما أقام بالأندلس أظلم بينهما ا
وخشي ابن خلدون دسائس صديقه فآثر العودة الى المغرب ، فلما
وابتعد عاد الجو بينهما الى الصفاء ، وجعل ابن الخطيب يحبر اليه الر
المسهبة متحدثا عن شدة شوقه الى رؤيته ، وما يعانيه من آلام الو
لرحيله !

وجاء ابن خلدون الى مصر وولي القضاء بهـــا ، ولقي الأمر
السعاية به والتأليب عليه ، وكان ابن خلدون واسع الدهاء عظيم الـ
ولذا استطاع ان يقاوم الكيد والدس ويحتفظ برأسه على كتفيه ، وقد
في كتابه بعض القصائد التي نظمها ، ولم يكن ابن خلدون ينظم الـ
للاستجداء فقد كان أرفع مقاما من ذلك ، وانما كان ينظمه التماسا لـ
وتوطيدا لمكانته ونفوذه السياسي ، فهو سياسي حتى في شعره ، وهو



فى أكثر قصائده ، وشعره يمتاز بالسلاسة والوضوح ولكن تنقصه حرارة العاطفة وصدق الشعور والمعانى المبتكرة ، وموجز القول ان ترجمته لنفسه قصة شائقة زاهية الالوان متعددة الفصول ، منوعة المناظر ، ومن فصولها الشائقة لقاؤه لذلك العاهل الخطير والسفاح الرهيب الذى طالما اســال الدماء وأطار الرؤوس وأزهق الارواح وخرب المدن وعرفه التاريخ باسم تيمور لنك .

والأستاذ عنــان والدكتور عبد الواحد على اعجابهــا بعبقرية ابن خلدون واكبارهما لآثاره الفكرية يوجهان اليه النقد من الناحية الاخلاقية ، ويعيبان عليه تنكره لأوليائه ونبذه الحفاظ ومقابلته الاحسان بالاساءة ، فالاستاذ عنان يقــول عنه بعــد حديثه عن مصرع الامير محمد سلطان بجاية (١) « وهكذا اختتمت تلك المغامرة التى كان ابن خلدون مدبرها منذ البداية ، وكانت من نفثات أطماعه ، وكانت كسابقاتها دليلا على ماتجيش به نفسه من الأثرة ونكران الصنيعة ، وانتهاز الفرص السانحة مهمــا كان انتهازها ينافى الوفاء والولاء والعرفان ، كان ابن خلدون ينطق فى خططه وأعماله عن احتقار عميق للعاطفة والأخلاق المرعية ، وكان يسيره مثل ذلك الروح القوى الذى أعجب به مكيافللى فيما بعد ، وتصــوره فى أميره الأمثــل ، ذلك الروح الجرىء الثابت الذى يقتحم كل ضعف انسانى ويحمل توا الى الغاية المرغوبة بأى الوسائل والخطط ، ويحاول ابن خلدون أن يعرب عن ندمه وأسفه لتطور الحوادث على هذا النحو فيقول لنا فى مكان آخر فى حديثه عن أمير بجاية التعس « فلما استدعانى هذا الامير أبو عبد الله بادرت الى انتثاله ، ولو شاء ربك مافعلوه ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير » ولكن الذى لا ريب فيــه هو أن ابن خلدون كان يجوز فى حوادث بجاية مغامرة من صنعه ، ويحاول اجتناء ثمار فرصة ترقبها وهيأها منذ بعيد ، ولا ريب أن مقتل حليفه وسيده لم يضره ولم يحزنه ، وقد كان معقد آماله أن ينطوى تحت لواء الظافر » .

وفى موضع آخر من الكتاب حينمــا يتحدث الاستاذ عنــان عن خواص ابن خلدون النفسية يقول (٢) « ليست هــذه الخواص دائما مما يحمد أو ممــا تقره الأخلاق الفاضلة ، فهنــاك الكبرياء والزهو والأثرة وهناك الطمع وحب التقلب وشغف الدس وانتهاز الفرص بأى الوسائل، ثم هناك الجحود ونكران الصنيعة ، هذه كلها نلمحها من آن لآخر ماثلة فى أعمال المؤرخ حسبما يقصها علينا بنفسه » .

ويتبع ذلك الاستاذ عنان بقوله « ولكن هذه الخلال السيئة لا تبعد كثيرا عن خواص الشخصية الممتازة ، بل هى فى الغالب خلال السياسة القوية الظافرة أو هى بعبارة أخرى مقومات السياسة « الميكافيللية » التى تتبوأ مكانتها بين مذاهب الســياسة الحــديثة ، ثم هى تقترن فى الوقت نفسه بكثير من خواص العبقرية ومميزاتها ، فهنالك الى جانبها ترى الجرأة والاقدام وقوة النفس والثبات والجلد ، وترى وفرة الذكاء والدهاء وبعد

(١) صفحة ٥١ ــ ٥٢ من كتاب « ابن خلدون » للاستاذ عنان .
(٢) صفحة ١٦١ من كتاب « ابن خلدون » للاستاذ عنان .

النظر وترى قوة التأثير والاقناع وترى الفصاحة والبيان الساحر ، هذه الحلال البديعة كلهـا أيضا مما نستشف ونشهد فى أعمـال ابن خلدون ومواقفه » .

وفى هذا التعليق يحاول الاستاذ عنان أن ينظر الى حياة ابن خلدون من الناحية الفنية الجمالية لا من الناحية الاخلاقية .

والدكتور عبد الواحد يقول فى نقده لأخلاق‌ابن خلدون (١) « وقد قويت حينئذ لدى ابن خلدون نزعة ذميمة يصرح هو نفسه بتصويرها ولا يحاول اخفاءها وان كان يلتمس لها المعاذير والمبررات ، وهى نزعة انتهاز الفرص بأية وسيلة ، وتدبير الوصول الى المقاصد من أى طريق ، فكان لا يضيره فى سبيل الوصول الى منافعه وغاياته الخاصة أو فى سبيل اتقاء ضرر متوقع أن يسىء الى من‌أحسنوا اليه ، ويتآمر ضد من‌غمروه بفضلهم، ويتنكر لمن قدموا له المعروف ، وظلت هذه النزعة رائده فى مغـامراته السياسية وعلاقاته بالملوك والأمراء والعظمـاء منذ صلته بوظائف الدولة حتى مماته » .

وهناك مسألة هامة اختلف فيها رأى الباحثين الفاضلين وهى مسألة رأى ابن خلدون فى العرب ، فقراء مقدمة ابن خلدون يـعرفون فصـول المقدمة التى‌ذكر فيهـا أن العرب لا يتغلبون الا على البسـائط وانهم اذا تغلبوا على أوطان أسرع اليها الخراب وانهم لا يحصل لهم الملك الا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة وانهم أبعد الأمم عن سياسة الملك ، والاستاذ عنان يقول فى هذا الصدد (٢) « لقد حاول بعض البـاحثين فى الأعوام الأخـيرة الاعتـذار عن موقف ابن خلدون من العرب ، وتبرئة العرب‌من نظرياته وأحكامه فى حقهم ، وذلك بقولهم ان ابن خلدون يقصد بالعرب الأعراب أو «البدو» ولا يقصد العرب أنفسهم، وفى رأينا أن هذا الاعتذار ركيك ومغصـوب معـا ، وفيه انتقاص كبير لتفكير ابن خلدون المتزن المنظم، ومنطقه القوى السليم، وليس ابن‌خلدون بالمفكر الذى يعجزه تسمية الأشياء بمسمياتها الحقيقية ، ولو كان يقصد « البدو » لما فاته أن يستعمل هذه الكلمة ، وانما يقصد ابن‌خلدون بسائر نظرياته المتقدمة « العرب » أو بعبارة أخرى سكان شبه الجزيرة العربية، وليس أدل على ذلك ممـا يقول ابن خلدون نفسـه أولا فى شرح نظريته « فى أن العرب اذا تغلبوا على أوطان أسرع اليها الخراب » من أن العرب حينما تغلبوا على‌العراق والشام تقوض عمرانهما ، وكذلك خربت‌أفريقية والمغرب لما جاز اليهـا بنو هلال وبنو سليم ، وما يقوله فى شرح نظريته الأخرى من أن « حملة العلم فى الاسلام أكثرهم العجم » فهو هنا واضح جدا فى أنه يقصد العرب الأصليين، وفى مقدمتهم النبى العربى والصحابة والتابعون وسائر سكان شبه الجزيرة .

وينقد الاسـتاذ عنان هذا الرأى بقوله (٣) « اذا كان ابن خلدون

(١) صفحة ٤٦ من كتاب « ابن خلدون » للدكتور على عبد الواحد .

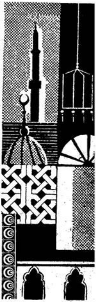
(٢) صفحة ١٢٧ من كتاب « ابن خلدون » للاستاذ عبد الله عنان .

(٣) صفحة ١٢٨ من كتاب « ابن خلدون » للاستاذ عبد الله عنان .

يعتمد فى هذه الحملة على كثير من الأدلة والملاحظات الصادقة فانه مع ذلك يبالغ فى حكمه على العرب ، وتعوزه الحجة فى كثير من آرائه » .

ويعلل الاستاذ عنان تحامل ابن‌خلدون على العرب بمثل هذه الشدة(١) « بأن ابن خلدون برغم انتسابه الى أصل عربى ينتمى فى الواقع الى الشعب البربرى الذى افتتح العرب بلاده بعد مقاومة عنيفة وفرضوا عليه دينهم ولغتهم واضطروه بعد طول النضال والمقاومة والانتقاض الى أن يندمج فى الكتلة الاسلامية وأن يخضع راغما لرياسة العرب فى المغرب واسبانيا حتى تحين الفرصة لتحرره ونهوضه ، والخصومة بين العرب والبربر فى المغرب واسبانيا شهيرة فى التاريخ الاسلامى ، وقد ورث البربر بغض العرب منذ بعيد ، ونشأ ابن خلدون وترعرع فى هذا المجتمع البربرى يضطرم بمشاعره وتقاليده وذكرياته ، ونشأت فيه أسرته قبل ذلك بمائة عام ونعمت برعاية الدولة الحفصية الموحدية، وهى ترجع الى أصول بربرية عريقة ، وتقلبت فى نعمهم ، فليس غريبا بعد ذلك أن نسمع منه أشد الأحكام وأقساها على العرب » .

ويخالف الدكتور عبد الواحد الاستاذ عنان فيما ذهب اليه ويقول(٢) « الحقيقة أن ابن خلدون لا يقصد من‌كلمة العرب فى‌هذه الفصول (الفصول التى سبق الاشارة اليها) الشعب العربى ، وانما يستخدم هذه الكلمة بمعنى الاعراب أو سكان البادية الذين يعيشون خارج المدن ويشتغلون بمهنة الرعى وخاصة رعى الأبل ويتخذون الخيام مساكن لهم ويظعنون من مكان الى آخر حسب مقتضيات حياتهم وحاجات انعامهم التى يتوقف معاشهم عليها ، وهم المقابلون لأهل الحضر وسكان الأمصار ، كما تدل على ذلك الحقائق نفسها التى عرضها ابن خلدون فى الفصول التى وردت فيها هذه الكلمة » وبعد نقله عبارات من‌الفصول السابق الاشارة اليها يسترسل الدكتور عبد الواحد قائلا (٣) « وقد أساء كثير من الباحثين فهم مدلول كلمة «العرب» فى عناوين فصول المقدمة ولم يمعن النظر فيما يذكره ابن خلدون تحت هذه العناوين من الأمور القاطعة بأنه يقصد من هذه الكلمة سكان البادية الذين يشتغلون بمهنة الرعى ويعيشون عيشة تنقل ونجعة ، فظن أنه يقصد منها شعب العرب المقابل لشعب العجم ، وممن وقع فى هذا الخطأ الاستاذ الدكتور طه حسين فى رسالته « فلسفة ابن خلدون الاجتماعية » والاستاذ محمد عبد الله عنان فى كتابه عن « ابن خلدون حياته وتراثه الفكرى » .



وقد تناول هذا الموضوع الاستاذ ساطع الحصرى فى أحد فصول كتابه القيم « دراسات عن مقدمة ابن خلدون » وعنوان هذا الفصل « كلمة العرب فى مقدمة ابن خلدون » وحاول أن يثبت فى هذا الفصل أن ابن خلدون استعمل كلمة العرب بمعنى البدو والأعراب (٤) « خلافا للمعنى الذى نفهمه منها الآن ، كما يتبين من الدلائل والقرائن الكثيرة المثبتة فى جميع أقسام المقدمة » .

(١) صفحة ١٣٩ من كتاب « ابن خلدون » للاستاذ عنان .
(٢) صفحة ٢٢٠ من كتاب «ابن خلدون » للدكتور على عبد الواحد وافي .
(٣) صفحة ٢٢٤ من كتاب « ابن خلدون » للدكتور على عبد الواحد وافي .
(٤) صفحة ١٥١ من كتاب دراسات عن مقدمة ابن خلدون للاستاذ ساطع الحصرى .



واذا ثبت بصورة قاطعة أن ابن خلدون كانْ يقصد بكلمة العرب في مقدمته البدو أو الأعراب فانه باستعماله كلمة العرب قد أحدث لبسا ما كان أغناه عنه ، وأحسب أنه لا يكفي في تسويغ استعمال كلمة العرب في الفصول المشار اليها انه أحد المعاني اللغوية القديمة للكلمة كما يرى الاستاذ ساطع الحصري .

ويرى الاستاذ عنان بحق أن هناك الكثير من أوجه الشبه بين ابن خلدون والمفكر السياسي والاجتماعي مكيافللي ويرجع هذه المشابهة الى الظروف والبيئة التي تكون فيها كل منهما ، وكذلك الى طريقة فهمه للتاريخ والظواهر الاجتماعية ، وكان من السابقين في الشرق الى الاشارة الى المشابهة بين المفكرين السياسيين الكبيرين المؤرخ المعروف جرجي زيدان ، والواقع أن حالة الامارات والجمهوريات الايطالية في عهد مكيافللي كانت تشبه الى حد كبير الاوضاع السياسية التي نعرضها الممالك المغربية في أيام ابن خلدون كما ذكر الاستاذ عنان .

وينوه الدكتور عبد الواحد بأهمية دراسة ابن خلدون للظواهر الاجتماعية (١) « وذلك أن تدرس هذه الظواهر لا لمجرد وصفها ولاللدعوة اليها ولا لبيان ما ينبغي أن تكون عليه ، ولكن لتحليلها تحليلا يؤدي الى الكشف عن طبيعتها والأسس التي تقوم عليها والقوانين التي تخضع لها ، أي أن تدرس كما يدرس العلماء ظواهر الفلك والطبيعة والكيمياء ووظائف الأعضاء وما الى ذلك من مسائل العلوم ، ويعقد موازنة مستنيرة بين منهج الدراسة عند كونت ومنهج الدراسة عند ابن خلدون والنتائج التي انتهى اليها كل منهما ويستخلص من هذه الموازنة أن ابن خلدون هو المنشىء الأول لعلم الاجتماع .

وكتاب عالم الاجتماع الفرنسي جوستون بوتول « ابن خلدون وفلسفته الاجتماعية » الذي قام بترجمته الاستاذ غنيم عبدون وراجع ترجمته الاستاذ مصطفى فوده على ايجازه يحوي الكثير من النظرات النافذة والأفكار اللامعة في فلسفة ابن خلدون الاجتماعية والتاريخية ، ومن الملاحظات الطريفة التي ذكرها بوتول عن طريقة ابن خلدون في تفسير التاريخ قوله (٢) نستبعد طريقة ابن خلدون « الفرد » وهذه خصيصة جديرة بالملاحظة منذ بدء دراسة المقدمة، وهو لا يعتقد كثيرا في الاتجاهات الوراثية ، الوسط والتربية في نظره هي التي تحدد معتقدات وميول الأفراد أما من ناحية الشخصيات المهمة ، ففي رأيه أنها نتاج بعض الظروف والبيئة ، والتفسير التاريخي كما تصوره لا يتضمن أبدا « ابطالا » بالمعنى الذي يقصده كارلايل ، ويمكن التساهل في هذا بالنسبة للقادة والملوك، لقد عاش ابن خلدون في جميع بلاطات ملوك المغرب الاسلامي ولا بد أنه بولعه بالمؤامرات الذي نعرفه عنه قد درس أخلاق الكبار بكل عناية كيما يوجه عمله معهم ولهذا نفهم بأنه انتهى الى تجريد نفسه من كل وهم يتعلق بهم ، ومع هذا كنا ننتظر منه أن يحتفظ باعجاب أكثر لمؤسسي

---

(١) صفحة ١٥١ من كتاب « ابن خلدون » للدكتور على عبد الواحد وافي

(٢) صفحة ١٤٠ من كتاب «ابن خلدون وفلسفته الاجتماعية » .

الدول أو الاسرات المالكة » والواقع أن ابن خلدون يشبه فى هذه الناحية المؤرخ البريطانى « بكل » وكارل ماركس وغيرهما ممن يخالفون توماس كارلايل فى تفسيره البطولى للتاريخ ٠

ويعزو بوتل تقلب آراء ابن خلدون وقلة اخلاصه لسادته المتعاقبين الى أحوال العصر الذى جرت فيه هذه الامور ويقول (١) « اذ ما رجعنا الى تاريخ تلك العصور فى جميع البلاد ظهر لنا أنه لم تكن هناك خيانة شائنة حقا الا فى المجال الدينى » ٠

وقد لاحظ بعض الباحثين ومنهم على ما أذكر الدكتور طه حسين نزعة التشاؤم الغالبة على تفكير ابن خلدون ، ويمكن أن ندرك بواعث هذه التشاؤم فى قول بوتول (٢) « وابن خلدون الذى عاش فى فترة انهيار لا جدال فيها قد أنشأ نظرية فى تدهور الأمم ، ومما هو جدير بالذكر أنه يهتم بدراسة قوانين تدهور الدول أكثر من اهتمامه بقوانين انشائها أو بعبارة أدق يهتم بدراسة عملية بعث الدول الجديدة من حطام الدول القديمة ، ويبدو أنه لم يعتقد بامكان التحسن أو التقدم ، بل أن تجدد النشاط الذى لاحظه عند تقلد أسرة جديدة الحكم لم يكن فى رأيه غير لمعة مؤقتة لا تلبث أن تنطفىء ، فهو لا يرى اذن أى مبدأ نافع يمكن جنيه من هذه الدوائر الثانية دائرة صعود الدول وهبوطها ، وثمة نقطة أخيرة فى تفكير ابن خلدون وهى أنه لا يؤمن بالشخصية الا قليلا ، فعندما يتحدث عن طبيعة الناس يبدو وكأنه يقول انها شىء لا أهمية له ، وان شخصيتهم تتوقف فقط على البيئة والتعليم ، وفيما عدا اعجابه بالمسلمين الأول فالارجح أنه لم يؤمن بوجود الأبطال أو العباقرة ، أما عن الأحداث التاريخية فانها تسير مدفوعة بأسباب خارجة عن سيطرة الشخصية الانسانية » ٠

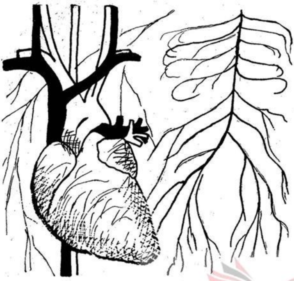
ونستخلص من ذلك أن ابن خلدون لم يكن يؤمن بفكرة التقدم التى سادت فى القرن التاسع عشر وانه كان من القائلين بالجبرية فى التاريخ وانكار حرية الارادة البشرية أو حصرها فى حدود ضيقة على الأقل، ومهما يكن من الأمر فان شخصية ابن خلدون المعقدة ونظرياته فى التاريخ والاجتماع وآراءه وأحكامه تحتمل تفسيرات مختلفة شأن الكثيرين من كبار المفكرين وسيظل موضوع خلاف وأخذ ورد بين الباحثين وأحسب أنه من الاسراف أن يدعى أى باحث أنه وصل فى دراسته لابن خلدون الى الكلمة الفاصلة والرأى القاطع وحسبه أن يلقى الاضواء ويضيف الى معلوماتنا عن آرائه وأفكاره وهذا ما يظفر به قارىء الكتب الثلاثة التى تحدثت عنها ٠

على أدهم

---

(١) صفحة ١١٠ من كتاب « ابن خلدون وفلسفته الاجتماعية » ٠

(٢) صفحة ١١٢ من كتاب ابن خلدون لجوستون بوتل ٠



النهر الحي

يبدأ الكتاب فى توضيح أهمية الدم فى حياة كل من الانسان والحيوان ، ولقد أدرك الانسان ذلك منذ القدم ، واعتبر الدم مرادفا للحياة ، وجعل من القلب مهدا للعاطفة ، وتمادى فى خياله وميز الدماء الى أصناف ، فوصف الارستقراطيين بأنهم زرق الدماء ، وذوى الطباع الحادة بانهم ذوى دماء حارة . وبعض الاديان تقدس الدم ، وتحرم على الانسان أن يتخذ من اللحوم التى بها دماء غذاء له .

ويشير الى حاجة الحيوان الراقى الى جهاز دورى يقوم بتوزيع الدم الى جميع خلايا جسمه ، وذلك بواسطة مضخة رئيسية وهى القلب خلال أنابيب متفرعة تعرف بالاوعية الدموية (الشرايين



بقلم الدكتور محمد جمال الدين حسين

والاوردة) • وتحصل بذلك جميع خلايا الجسم على نصيبها من الاكسجين والغــذاء الذائبين فى الدم ، واللازمين لحياتها ، كما انهــا تخرج فيه فضلاتها •

ثم يفسر الكتاب الســـبب فى ان الدم سائل يحتوى على نســـبة عالية من الماء ، فالماء يذيب كثيرا من المواد الكيمائية دون أن يغير من تركيبها، ويسهل من اتمام التفاعلات الكيمائية المختلفة ، كما أن حرارته النوعية أعلى من الحرارة النوعية لأى مادة أخرى ، وكذلك حرارته الكامنة للتبخر• وللماء أثر كبير فى حفظ درجة حرارة الدم ثابتة بالنسبة للحرارة المتـــولدة فيه من التفـــاعلات المختلفـــة ، وكذلك عندما يفقد الدم الحرارة أثناء تبخر الماء منه على هيئة عرق ، عند مروره فى الجلد •

ويبين كيفيـة حصـــول الـدم على حاجته من الاكســجين بطريق التنفس خــلال الحويصــلات الهوائيـة التى توجد داخــل الرئة ، ومنهــا الى الشــعيرات الدموية الصغيرة التى تحيط بهــذه الحويصلات • كما وصف تركيب الدم ، وذكر انه سائل صاف أصفر يعرف بالبلازما ، تسبح فيه أجسام من ثلاثة أنواع، وهى الكرات البيضاء والحمراء والصفائح الدموية • وتكلم عن تركيب القلب ، واتجــاه سير الدم فيه الى الرئتين والى بقية أجزاء الجسم ، للحصول على الاكسجين الذى يتــحد بهيموجلوبين الـــدم على صـــورة اكسهيموجلوبين الذى ينفصــل منه الاكســجين بسهولة لكى تستفيد به خلايا الجسم •

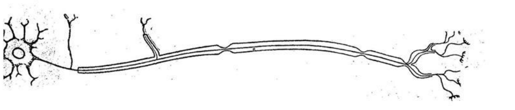
أما العقبات التى تقــف فى طريق الاكسجين عنـد ذوبانه فى الدم ، فمنهــا غاز أول أكســيد الكربون ، اذ يتــحد بذرات الحـــديد لجزئيات الهيموجلوبين بدلا من ذرات الاكسجين ، ويكون المركب الناتج ثابتا لا يتفــكك لكى يعطى أول أكسيد الكربون ثانية ، وبذلك لا تجــد ذرات الاكســجين فرصــة ســانحة لـكى تتـحد بالهيموجلوبين • ويوجد الحديد فى الهيموجلوبين على هيئة أيـــون الحـــديدوز ، وعنـــد تكوين الاكسيهيموجلوبين ، يتحول الحديد فيه الى أيون الحـــديديك ، ويعرف الهيمـــوجلوبين النـــاتج بالميتاهيموجلوبين ، وهو لا يســتطيع امتصاص الاكسجين ، ولكى تستمر عملية امتصاص الدم للاكســجين توجد بالدم مــواد تعرف بمختزلة الهيموجلوبين ، لتحول أيون الحديديك الى أيون الحديدوز ، وهناك بعض الكيمائيات اذا وجدت فى الدم فانها تستطيع أن تحول الهيموجلوبين الى ميتاهيموجلوبين بسرعة تفوق قدرة المواد المختزلة للهيموجلوبين ، ويصبح الدم بذلك غير قادر على امتصاص الاكسجين ، ومن أمثلة هذه المواد غاز السيانيد ، الذى يستعمل فى اعدام المجرمين ، وكذلك غاز كبريتيد الايدروجين ورائحته تشبه رائحة البيض الفاسد • ونقص الهيموجلوبين فى الدم يقلل من الاكسجين الممتص ، وينشأ نتيجة لذلك نقص فى الطاقة التى ينتجها الجسم ويعرف

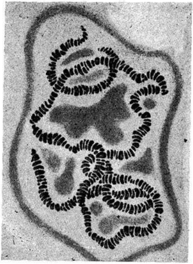
هذا بمرض أنيميا أو فقر الدم ، ومن أهم أسبابه نقص كمية الحـديد فى الجسم ، وأحيانا كمية النحاس • وتنشأ الانيميا نتيجة لخلل فى تكوين هياكل الكرات الحمراء ، وبذلك يقصر عمرها ، ويقل عددها • وقد وجد ان خلاصة الكبد تحتوى على عامل مضاد للأنيميا الخبيثة، ويعرف بفيتامين (ب ١٢) ، ويحتوى على عنصر الكوبالت ، وعلى مادة السـيانيد ، ويسـمى سيانوكوبلامين ، وجزئياته معقدة التركيب ، لا يمكن تخليقها فى المعمل • وهنـاك عامل داخلى مضاد للأنيميا ، ويوجد بالعصير المعدى ولا يزال تركيبه غير معروف الى الآن •

ثم نجد شرحا لظاهرة تماسك الكرات الحمراء وتجمعها aggiutination التى تسبب انسداد الاوعية الدموية ، ويؤدى ذلك الى الوفاة • وتنشأ هذه الظـاهرة عند خلط دم فردين ليسا من فصيلة واحدة ، وذلك لان الكرات الحمراء تحتوى على أنتيجينات معينة ، بينما المصل يحتوى على مواد مضادة لأنتيجينات أخرى غير السابقة • وهذه المواد المضادة تتفاعل مع أنتيجيناتها اذا انتقلت للفرد من دم غريب مسببة تماسك الدم ثم الوفاة • ولذا فى عمليات نقل الدم ، يجب دراسة نوع الفصيلة التى ينتمى اليها دم كل من المتطوع والمريض ، واعطاء المريض الدم الذى يناسبه ولا يسبب تماسك دمه • ويرث الانسان فصيلة دمه من أبيه وأمه ، ولذا تستخدم دراسة فصائل الدم للفصل فى المنازعات على الابوة • وهناك مجاميع أخرى من فصـائل الدم تعرف بالعامل الرسيسى Rhesus Factor الذى ينتج أنتيجينات خاصة ، ويوجد فى ٨٥٪ من الناس ، واذا ورث الجنين هذا العامل من والده ، وكانت الأم خالية منه ، نتـج عـدم توافق بين دم الأم

دمه بمفعول مواد مضادة تتـكون فى دم الجنين ، وقـد يؤدى الى وفاة الاخير ، لتماسك نتيجة لتسرب أنتيجينات الجنين الى دمها •

ويذكر الكتاب بأن هنـاك أنواعا أخرى من الهيموجلوبين تختلف اختلافا طفيفا فى تركيبها عن الهيمـوجلوبين العـادى الذى يعـرف بهيموجلوبين (أ) • وينحصر هذا الاختلاف فى بعض خواصها الكهربية والكيمائية ، وأول هذه الانواع هو هيموجلوبين (ف) ، ويوجد فى دماء الاجنة ، ويتميز هذا النوع من الهيموجلوبين بانه يتـحد بالاكسـجين بدرجه أكبر من اتحـاد هيموجلوبين (أ) به • ولهذه الخاصية أثر كبير فى حصول الجنين على الاكسجين من دم أمه أثناء وجوده فى جسمها • وهيموجلوبين(س) ، ويوجد فى دماء بعض الزنوج، يختلف عن هيموجلوبين(أ) بأنه أقل ذوبانا منه • ونظرا لاختلافه فى صفاته الكهربية فانه ينجذب أبطأ من هيموجلوبين (أ) فى عمليـة الفصـل الكهربى ، وكذلك أبطأ من هيموجلوبين (ف) • ويسبب هيموجلوبين (س) انحناء الكرات الحمراء على شكل المنجل ، وتعرف بالخلايا المنجلية ، وهى تتهشم بسرعة كمـا انها أقل كفاءة فى امتصاص الاكسجين ، ويسـبب وجودها فى الدم نوعا من الأنيميا يعرف بالأنيميا المنجلية الخلية • وهنـاك علاقة بين وجـود هيموجلوبين (س) وانتشار الملاريا فى أى منطقة من السكان ، فقد وجد انه من المحتمل أن طفيل الملاريا لا يستطيب مهاجمة هيموجلوبين (س) ، ولذا فان المناطق التى تنتشر فيها الملاريا ينتشر فيها هيموجلوبين(س) • وهناك أنواع أخرى من الهيموجلوبين ، مثل هيموجلوبينات C, D, E, F, H, I, K, M وهى تنشأ نتيجة لتغيرات نادرةفى الوحدات الوراثية الخاصة بالهيموجلوبين،

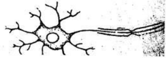




وهى أقل كفاءة من الهيموجلوبين العادى· وتوجد فى دماء بعض سكان آسيا وافريقيا ، وقد اكتشفت هذه الانواع المختلفة للهيموجلوبين بطريقة الفصل الكهربى ·

ويتكلم الكتاب عن مصير المواد التى تتكون فى خلايا الجسم ، نتيجة لأكسدة المواد الغذائية بالأكسجين ، الذى يصل اليها عن طريق التنفس· ونظرا لان هذه المواد تتركب من أربع أنواع من الذرات ، وهى الكربون والايدروجين والاكسجين والنتروجين ، فان نواتج أكسدتها تكون على صورة ماء وثانى أكسيد الكربون وبولينا ، والاخيرة تنشأ نتيجة لأكسدة المواد النتروجينية· وتوجد نواتج الاكسدة هذه بالدم · والماء الناتج من أكسدة الايدروجين ليس له أى ضرر للجسم ، بل يحتاج الجسم الى كميات اضافية منه ، ويحصل عليها من غذائه لكى يعوض ما يفقده من الماء فى هواء الزفير والبول والبراز والعرق · أما ثانى أكسيد الكربون فلا يحتاج الجسم الى كل الكمية الناتجة منه ، وما يزيد يبقى فى الدم ، وعندما يصل الدم الى الرئتين يتخلص من فائض ثانى أكسيد الكربون ، الذى يخرج فى هواء الزفير · ويتخلص الجسم من البولينا، وذلك عند مرور الدم الى الكليتين ، وينظم وظيفة الكلى هورمون الفازوبرسين ، الذى تفرزه الغدة النخامية وتوجد بقاع المخ ·

أما المواد الكربوهيدراتية التى نحصل عليها فى غذائنا ، فهى تتحول عند مرورها فى القناة الهضمية بواسطة انزيمات مختلفة الى سكريات أحادية وهى الجلوكوز والفركتوز والجالاكتوز · ويتحول كل من الفركتوز والجالاكتوز داخل خلايا الامعاء الدقيقة الى جلوكوز ، وبذلك فان ما يخرج

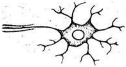


من هذه الخلايا ويدخل الدم هو الجلوكوز فقط· وتأخذ خلايا الجسم الجلوكوز والاكسجين من الدم ، وينتج من اتحادهما ثانى أكسيد الكربون وماء ، وتنطلق الطاقة · وتظل نسبة الجلوكوز فى الدم ثابتة ، وذلك لان الكبد يختزن الجلوكوز الزائد على هيئة نشا يعرف بالجليكوجين · وهذا يمكن أن يتحلل الى جلوكوز عند حاجة الدم اليه· وينظم العمليات الكيميائية التى تحافظ على توازن مستوى الجلوكوز فى الدم هورمون الانسولين · وتفرزه بعض خلايا البنكرياس · وينشأ عن نقص هذا الهورمون زيادة نسبة الجلوكوز فى الدم ويعرف هذا بمرض السكر ، ويخرج بعض الجلوكوز الزائد فى البول ولذا يسمى أيضا مرض البول السكرى · ويعالج مرضى السكر بحقنهم بأنسولين مستخرج من بنكرياس الماشية· ولا يمكن للجسم الاستفادة من الانسولين المعطى بطريق الفم لانه يتغير تركيبه بتأثير الانزيمات الهاضمة · وهناك بعض الادوية الحديثة التى لا تتأثر اذا أخذت عن طريق الفم ، وهى تعمل على اتلاف أنزيم الانسولينيز الذى يبطل من عمل

الانسولين الذى يوجد فى جسم المريض وبذلك يمكنه من الاستفادة به ٠

ثم ينتقل الكتاب الى الكلام عن المواد البروتينية ٠ فهى تتحول فى القناة الهضمية الى أحماض أمينية ، وهذه تدخل الدم وتتحول الى بروتينات مرة أخرى فى الكبد ، الذى لا يختزنها كما هو الحال مع الجلوكوز ٠ ولكنها تعود ثانية فى الدم وتبقى ذائبة فى البلازما ، وتتوزع الى جميع خلايا الجسم فتحصل كل خلية منها على ما تحتاج اليه وتحللها الى أحماض أمينية ، ثم تعيد بناءها الى البروتين الذى يلائم احتياجاتها ٠ وبروتينات البلازما علاوة على وظيفتها فى التغذية فانها تقوم بنقل الهورمونات المختلفة من الغدد التى تفرزها الى مكان عملها ٠ واذا زادت نسبة الاحماض الامينية فى الدم ، فان الكبد يقوم بتحويل جزء منها الى بولينا تذهب مع الدم الى الكلى وتخرج فى البول ، أما الجزء الباقى من الاحماض الامينية الذى لا يحتوى على نتروجين فانه يتحول الى جليكوجين يختزن فى الكبد ٠ والمواد الدهنية فى غذائنا تمتص على هيئة أحماض دهنية وجليسرول ، وهذه تدخل الدم عن طريق الاوعية الليمفاوية بخملات الامعاء الدقيقة٠ وينقلها الدم الى الكبد حيث يتم تحويلها الى الصورة التى توجد بأجسامنا ٠ وعندما تمتص خلايا الجسم الاحماض الدهنية فانها تؤكسدها للحصول على الطاقة ، وينتج غاز ثانى اكسيد الكربون وماء ٠ وتعتبر المواد الدهنية مصدر غنى للطاقة ، وتختزن فى الجسم وخاصة تحت الجلد للاستفادة منها عند الحاجة ، كما انها تحمى الجسم من المؤثرات الخارجية ٠

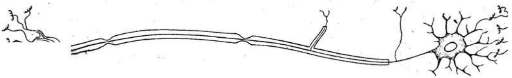
ووسائل دفاع الجسم ضد الميكروبات عجيبة فالجسم يحيط نفسه بجدار واق يعرف بالجلد ، كما ان نخاع العظام يكون الكرات البيضاء التى تلتهم الميكروبات التى تستطيع أن تنفذ خلال



الجلد ٠ أما الميكروبات التى تستطيع أن تدخل مجرى الدم وتستقر فى العقد الليمفاوية ، فستجد ما يلتهمها من الكرات البيضاء الموجودة فى هذه العقد ٠ كما ان نخاع العظام يفرز مواد بروتينية تعرف بالاجسام المضادة ، وهى تتحد مع الميكروبات وتعرقل من نشاطها ٠ وظاهرة تكوين الاجسام المضادة ، علاوة على انها تقى الجسم من شر الميكروبات ، فهى تكسبه خاصية المناعة ضدها ، الا انها قد تسبب له أمراض الحساسية ٠

ويختتم المؤلف الكتاب بالحديث عن ظاهرة تجلط الدم وكيميائها ٠ وهى ظاهرة وقائية تمنع نزف الدم عند حدوث الجروح ٠ ومن أشهر أمراض النزيف مرض الهيموفيليا ، وينشأ نتيجة لعدم قدرة الدم على التجلط ٠ ويعتبر هذا المرض صفة وراثية مرتبطة بالجنس فهو يظهر فى الذكور ولا يظهر فى الاناث ٠

ويتضح لنا مما سبق ذكره بأن الكتاب قد عالج معظم المواضيع الهامة التى تتعلق بالدم والجهاز الدورى فى الانسان ٠ كما أنه يحتوى على معلومات هامة واساسية ، يجب الالمام بها لكى نتفادى اصابتنا بالأمراض المختلفة ، التى تنشأ من عدم اتباع التعليمات الصحية أو الجهل بها ٠ ويبين الكتاب أيضا مدى تطبيق علم الوراثة فى منع الامراض التى يرثها الانسان من أبويه من أن تظهر فى نسله ٠ كما يمتاز أيضا بأنه يمهد لكل موضوع بطريقة تدريجية لكى يقرب الحقائق



الى ذهن القارىء ويساعد على هذا لغة الكتاب ، فهو مترجم بأسلوب عربى رصين .

وهناك بعض الأخطاء ، ولو أنها مطبعية أو شبه مطبعية ، فانه يجب الاشارة اليها ، اذ أنها قد تغمض من المعنى المطلوب ، وقد تسبب بلبلة وتشتيتا فى فكره القارىء ، وخاصة غير المختص، ومن أمثلة هذه الأخطاء مايلى ذكره : ــ

١ ــ فى صفحة ٢٣ ــ السطر الأخير ــ يمتص الدم الحرار عند مروره فى الأنسجة الباردة مثل الجلد . وتصحيحها يفقد الدم الحرارة .

٢ ــ فى صفحة ٦٠ ــ السطر الثالث ــ الخليفة الحمراء . وتصحيحها الخلية .

٣ ــ فى صفحة ٩٥ ــ السطر الرابع ــ نفرض ان امرأة من فصيلة الدم (ب) تتهم رجلا من فصيلة الدم (أ) بأنه والد لطفلها ، وفى هذه الحالة تكون الأم أما (اا) أو (او) . وتصحيحها تكون الام أما (بب) او (بو) .

٤ ــ فى صفحة ١٠٠ ــ السطر الأخير ــ دم الأم السبالة . وتصحيحها السالبة .

٥ ــ فى صفحة ١٢٤ ــ السطر الأول ــ البول المجفف . وتصحيحها المخفف

٦ ــ فى صفحة ١٢٦ ــ السطر التاسع ــ الكابونيك أنهيدريز ــ وتصحيحها الكاربونيك .

٧ ــ فى صفحة ١٢٧ ــ السطر السابع ــ يد٢ك أ٣ ــ يدك٣ + يد وتصحيحها يد٢كأ٣ ــ يد ك أ٣ + يد

٨ ــ فى صفحة ١٢٨ ــ السطر العاشر ــ يحتفظ بجزىء من هذه الفضلات وتصحيحها بجزء .

٩ ــ فى صفحة ١٣٩ ــ السطر الأخير ــ وتنظيم وظيفة الكلى مادة كيمائية تسمى فازوبرسين ، وتفرزها بكميات قليلة الغدة النكفية وهى عضو متصل بالمخ . وتصحيحها تنظم وظيفة الكلى مادة الفازوبرسين وتفرزها الغدة النخامية .

١٠ ــ فى صفحة ١٥٥ ــ السطر الثامن عشر ــ فاروبرسين . وتصحيحها فازوبرسين .

١١ ــ فى صفحة ١٩٥٧ ــ السطر التاسع ــ ومتى دخل الجلوكوز الى مجرى ذاب فى البلازما . وتصحيحها الى مجرى الدم .

١٢ ــ فى صفحة ١٧٠ ــ السطر الثالث والعشرين Ompetltive وتصحيحها Competitive

١٣ ــ فى صفحة ١٨٠ ــ السطر السادس ــ وقد عرف ترتيب هذه الأحماض الامينية فى جزىء الهيموجلوبين بالضبط . وتصحيحها فى جزىء الأنسولين .

١٤ ــ فى صفحة ١٨٥ ــ عنوان الباب ــ بروتينات تطفو بحرية . وتصحيحها بحرية .

وفى رأيى أن هذه الأخطاء لاتؤثر من قيمة العمل الذى قام به المترجم مشكورا .

د . محمد جمال الدين حسين

دراسات



د . طه حسين

يقول فون جرونيباوم فى حديثه عن أثر العرب :

فى شعر التروبادور فى ص ٢٠١ من هذا الكتاب (دراسات فى الأدب العربى) :

« اذن ففى خلال العصور الوسطى كان وجود القوة الاسلامية نفسه اهم عامل اوجد في تطور الغرب ، وحين جد حبل الحياة في البحر المتوسط ارتد العرب ليحيا على مذخوراته . ثم اخذ الشعور بالنقص فى باب الاقتصاد والوسائل الصناعية يختفى تدريجيا حتى نهاية تلك الحقبة ولكن جانبا من ذلك الشعور بالنقص بقى كامنا في نفسية الغرب فى صورة نزعة مزدوجة نحو الاسلام يجتمع فيها الخوف والاعجاب ويمتزج فيها الكره بالشوق على نحو عجيب ولم يستطع المسيحى الغربي ان يتخلى عن شكوكه نحو الاسلام لانه كان عالما اجنبيا عنه ، ولكن الاسلام كان شديد القرب منه بحيث يخلق في نفسه احد شيئين ! اما تقبلا لكثير من معطيات الاسلام ، واما عداء واعيا لها » .

وهذه العبارة التى افلتت من قلم المستشرق

فى الأدب العربى



بقلم : فاروق خورشيد

الحريص المدقق وسط كتابه ، تكشف بصورة واضحة محددة تلك الحقيقة التى يجب الدارسون العرب أن يغفلوا النظر اليها أو الانتباه لها ، اما احتراما لنغمات العلم السارية فى أعمال المستشرقين ، واما رهبة امام جهد المستشرقين الخارق المذهل فى خدمة تراثنا الاسلامى ..

ولكن هذه العبارة الصادقة العفوية بصفة خاصة ، والكتاب كله بدراساته ذات الطابع العميق الجاد بصفة عامة ، تحمل الدليل القوى على صدق القضية التى تنبه الى ضرورة النظر الى أعمال المستشرقين فى حذر علمى ووجدانى لايقل بحال عن الموقف المسيحى الغربى امام معطيات العالم الاسلامى الذى يصفه فون جرونيباوم نفسه بأنه كان عداء واعيا لها ..

والقضية هنا ليست قضية حماسة خطابية لدور الثقافة الاسلامية واهميتها فى ارساء الحضارة الانسانية ، فان أحد لم يستطع أن يسمى موقف الغرب الحذر من الحضارة الاسلامية الوافدة اليه بالنور والمعرفة فى العصور الوسطى ، بالخطابية والحماسة .. وانما الامر ان الزمن قد دار دورته واننا وصلنا فى تطورنا الحضارى الى بدء عصر نهضة مستقلة تسعى الى أن تعيش من جديد على مذخوراتها هى ، بعد أن قام الغرب بدوره فى التعريف بهذه المذخورات ، و فى نقلها الينا بعد أن اضاف اليها وطور منها ... كما أن آفة الشعور بالنقص التى كنا نحس بها تجاه الحضارة الغربية قد بدأت بتقلص النفوذ العسكرى الغربى فى بلادنا ... وهذا يعنى أن موقفنا اليوم يكاد يشابه الى حد كبير موقف الغرب من الحضارة الاسلامية حين أدت رسالتها بالنسبة له ، وأخذ منها ما يشاء ، ثم وقف تجاهها موقف الحذر المستريب . ولسنا نريد من علمائنا الا هذا الموقف العلمى الواعى من جهود المستشرقين وأعمالهم . ولعل التحذير الذى صدر به المترجمون الكتاب يدل على أن الدارسين فى بلادنا قد بدءوا ـ ينتبهون الى هذا

الموقف ويلتزمون به حيث يقولون في ص ٢ من المقدمة .

« ان هـذا الفلك الذى تدور فيه مقـالات الاستـاذ جرونيباوم لا يحمل فى حقيقته القول الفصل الحاسم فى أمور هى من أشد ما يمكن ان يختلف الناس حوله ، لانها أمور تفتقر دائما الى الشواهد القوية الدامغة ، بل الى الشواهد المرجحة اننا لا نستطيع أن ننكر التفاعل من جميع الثقافات ، ولكن الحكم على هذا التفاعل من جميع صور التشابه مزلة خطر ، لأن التشابه لا يعنى دائما تأثير هـذا فى ذاك بل أنه يعنى أيضـا أن المقدمات المتشابهة تؤدى الى نتائج متشابهة » ..

ان هذا الانتبـاه هام وخطير لأن الاسـتـاذ جرونيباوم رغم علو صوته فى حقل الدراسات العربية والاسلامية بصفة عامة يدور فى ابحاثه وكتبه العديدة حول فكرة واحدة يبـدو أنهـا تستأثر بلبسه وتستحوذ على اهتمـامه الاكبر ، وهى تتضح فى هذا الكتاب كما تتضح فى كتابه حضارة الاسلام ،واتضحت بصورة أوفى فى محاضراته التى ألقاها حين زار كلية الآداب بجامعة القاهرة منذ أعوام قليلة .. وهذه الفكرة التى تستقطب اهتمـامه وتدور حول كل جهوده ، هى ان الأدب العربى والثقافة الاسلامية قد تأثرا تأثيرا مباشرا وغير مباشر بالثقافة الهيلينية . حتى لقد وصل به الامر الى جعل هذا الهدف موضوع دراسـاته المتعددة فهو فى كتابه حضارة الاسلام يقول بصراحة أن دور الثقافة الاسلامية كان ينحصر فى نقل الثقافة الهيلينية الى الغرب ... وفى ذلك الكتاب قدم دراسة عن ألف ليلة وليلة انتهى منها الى اثبات أثر الثقافة الهيلينية فى ألف ليلة وليلة وهو العمل الذى يعتبر عملا شعبيا عربيا يحمل مأثور الشعب



العربى فى فترة حضارية بذاتها ... أما كتابنا هذا الذى نتعرض لهفتراه يتحدث فى الفصل الأول منه عن الأسس الجمالية فى الادب العربى فيروح الى اثبات مدى تأثر الأدب العربى بالثقـافة الهيلينية حتى يقول صراحة فى ص ٢٣ :

« وأما النهضة الحضارية الاسلامية فلم تقم بعثا للقديم العربى ، وموروث الاسلاف ، بل كانت جيشانا من الموروث الاغريقى والدوافع العلمية والمشاعر التاريخية » ..

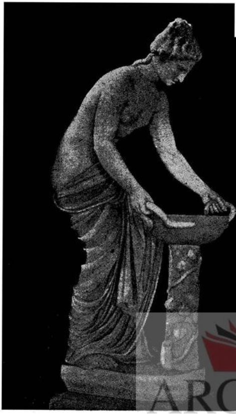
فاذا انتقلنا الى الفصل الثانى فى كتابه « روح الاسـلام كمـا تبدو فى الأدب العربى » وجدناه يذهب الى مالاحظه الدارسـون من أن « الميـل الى رؤية الكون غير مستمر ، والميل الى الاهتمام بالجزئيات فيه ، لا بانسجامها واكتمال تأليفها ـ ان هذا متصـل بلب التجربة الاسلامية » فهو يذهب الى النظرية التى ذهـب اليهـا الكثيرون من المسـتشرقين غيره والتى تناقلهـا فى براءة اساتذة اجلاء من الدارسين الرواد من أمثـال الأستاذ أحمد أمين والدكتور طه حسين والتى تنص على الفكر العربى والاسلامى اهتمامه بالجزئيات وتصوره عن الكليات ... حتى ليصـل الامـر بجرونيباوم فى ص ٤٤ أن يقول :

« واذا استثنينـا بعض الامثال والقصـص القصيرة وأكثرها اما مستمد من الآداب الأجنبية

واما نقل دقيق لاحداث حقيقية ، الفينا المسلم العربى يحتقر الاختراع الفنى » .

فى هذا الفصل يحـدد جرونيباوم « ان الدين وقف سدا دون الاهتمام بقدرة الانسـان على الخلق » ص ٤٥ ولـكنه يحدد أيضـا أن بعض الأشكال الفنية التى وجـدها فى الأدب العربى الاسلامى ليست الا أثرا للثقافة الهيلينية فيقول فى ص ٥٣ فى حديثه عن المقامة :

« والحق أن المقامة وضعت أولا باللغة العربية، ولكنها ليست فرعا من التراث العربى القديم . ولا يمكن ان نجد بواكير منها فى عهد امبراطورية الأمويين العربية » .



وهو يذهب بعد هذا ببساطة الى حكم عام يقرر :

« اذن فان احياء شكل من الاشكال الادبية الهلينية ، واتخاذه اطارا تتحرك فيه الشخوص والاحداث على حسب مايمكن ان تحدث في جو مدينة اسلامية ، وان رفع هذا الشكل الى المستوى الادبي ، باستعمال لغة صعبة مليئة بالاشارات والتوريات والمحسنات الصناعية ، وان توجد عناصر متجانسة وصهرها في اسلوب واحد ، ان كل هذا ليعكس بوضوح في مجال محدود ، تلك العملية التي استمدت المدنية الاسلامية منها اصلها وخصوبة مادتها ، اعني عملية الهضم والتمثل » .

فهو مصر كما هو واضح على الرجوع بكل شيء خصب الى الموروث الهيليني والى نسبة كل ما يتصوره من توقف وجمود الى التأثير الاسلامي . بل انه في هذا الفصل نفسه يقف عند ظاهرة وجود القصص الربية التي يدور النثر فيها حول نواة من الشعر ، وهي ظاهرة موجودة في كل الكتب العربية القديمة وتميز أسلوب الاستشهاد العربي حين يجعل للبيت الشعري مناسبة فيعطي حوله قصة ، أو حين يستهويه المثل فيحيله بيت شعر ، ويعقد مزاوجة بين الرواية النثرية والاستشهاد الشعري .. ان هذه ظاهرة تميز أسلوب القصص العربي ، بل ان الأديب العربي حين استهوته احداث معينة في تاريخه الاسطوري كأحداث الامم البائدة وخلق العالم كتب الشعر على السنة أبطالها وأدار حكاية على المزاوجة التقليدية بين الشعر والرواية النثرية ..

هذه الظاهرة حين يقف عندها فون جرونيباوم في هذا الفصل يقول في ص ٢٥٤ :

« فاذا قلنا ان المقامة نوع أدبي اسلامي لا عربي على التعيين ، فليس معنى ذلك ان ليس في عناصرها الشكلية ما يمكن ان يعزى الى الموروث العربي . فهذه المزاوجة بين السجع والشعر في قطعة واحدة ظاهرة جاهلية ، وكثيرا ما نجد في القصص عن أيام العرب ان النثر نما حول نواة من الشعر . وتدل قرائن أخرى على أن القصيدة كانت توضع بعد أن يوجد الخبر المنثور . فاستعمال القاص لها عمدا ، وجعلهما معا على قدم المساواة ، قد يعزى الى تأثير هيليني » ..

وفي الفصل الثالث وعنوانه « الدراسات الاسلامية والبحث في الحضارة والثقافة » نجده يجهد نفسه اجهادا كبيرا ليؤكد ان لب المعرفة الاسلامية هو « البحث اللغوي والادبي » وان الهمة في ظل الثقافة الاسلامية « لا تتوجه نحو ما تحويه التجربة الداخلية ، ولكنها تتوجه نحو تجديد النموذج التقليدي من السلوك وارهافه وشحذه وتحسينه بمرور الايام » (ص٢٦٦) ..

وحين يجد نفسه مضطرا الى تأكيد وجود مشابهة قوية بين التقوى الاسلامية وبين الارثوذكسية الاغريقية من شبهة التأثر الاسلامي يقول « ان هذا التوازي أو التقارب ليس من الضروري ان يكون نتيجة اتصالات أدبية مباشرة» (ص ٧٢) ويصل في محاولته تخليص الارثوذكسية الاغريقية من شبهة التأثر الاسلامي الى حد ان يقول بنظرية من الممكن ان تهدم أساس بحثه كله ، بل وان تجعل كل النتائج التي يحاول ان يتوصل اليها حول موقف الثقافة

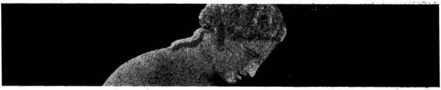


الهيلينية من الثقافة الاسلامية عبثا لا طائل وراءه، اذ يقول فى ص ٧٣ « واذن فلا بد لنا هنا من ان ندخل فى حسابنا أمر الوحدة الاساسية فى فكر أهل القرون الوسطى ومشاعرهم مثلما هى الحال فى الاسلام والمسيحية اليونانية . ووحدة الفكر والمشاعر ترجع الى تقارب فى الاصول وترابط فى النزعات التى تؤثر فى تطور المشاعر والافكار « ومن الممكن طبعا أن تستخدم هذه النظرية بذاتها فى هدم كل ما ندعيه من تأثر حتى للثقافة الاسلامية بالثقافة الهيلينية تأثر المدين بالدائن، فتصبح المسألة وحدة ثقافية نتيجة وحدة الفكر والمشاعر ، وترجع أيضا الى ترابط فى الاصول كما يقول هو نفسه فى الفقرة التى اقتبسناها . والغريب انه يذهب الى أن تغلغل الثقافة الهيلينية فى الثقافة الاسلامية كان عملا جبريا لابد أن يتم كنتيجة حضارية حتمية ، وان كان كما يقول فى ص ٧٥ وكان انشاء الروابط بينهم وبين الموروث الهيلينى عملا حرا مختارا ، وان كان قد نجم عن حاجة روحيــة » ويفسر هذه الحاجة الروحية بقوله « ذلك العنصر الاغريقى كانت مهمته فى الاسلام أساسا ذات أوجه ثلاثة : أولها وأهمها هو أنه قدم المسلمين شكلا عقلانيا خالصا من الفكر ، وعلمهم فن التنظيم ونقل اليهم صورا مبرهنة من القايسات المنطقية » ..

فانت ترى اذن من حديثه عن الحضارة الاسلامية فى هذا الفصل انه مازال يجهد نفسه اجهادا كبيرا فى اثبات الاثر الهلينى ،روح التفضيل له والاشادة به ، بحيث يصبح كل ما هو مشرق فى حياة العرب الفكرية ، أثرا من منآثار الثائر الهيلينى أما آثار القصور والتخلف فلا بأس ان تنسب الى الروح الاسلامية دون أن يكلف المؤلف نفسه علميا بمناقشة معنى هذه الروح الاسلامية مناقشة حضارية واجتماعية وبيئية .. ورغم وقوعه بالمتناقضات المتعددة التى أشرنا اليها ، الا أن خفوت الروح العلمية وعلو صوت التعصب واضح لا شك فيه فى هذا الفصل ..

وحين نتتبع هذا الموقف فى باقى فصول الكتاب نجد انه فى فصله عن النقد العربى فى القرن الرابع يؤكد فى ص ١٠٠ : « حاول قدامه ابن جعفر أن يطبق الدراسة البلاغية التى كتبها الاغريق على الشعر العربى وكانت هى المحاولة الأولى والاخيرة من هذا النوع الذى لم يكتب لها الاخفاق لتام » . ويقول فى ص ١٠٥ مثبتا وجود مدرسة فى البلاغة العربية تتأثر بالبلاغة اليونانية : « وفيما يتصل بدراسة الشعر العربى والتقنين له ، ظل أثر المدرسة البلاغية اليونانية يتضاءل حتى غدت تدور فى فراغ مطلق » . ويضطر الدكتور محمد يوسف نجم الذى ترجم مقاله الخاص بآراء ابن أبى عون الأدبية ان يناقشه فى هامش ص ١٢١ بقوله : « واضح ان كثيرا من مصطلحات ثعلب فى كتابه (قواعد الشعر) عربى خالص ، وخاصة فى وصفه الابيات بانها عزاء أو محجلة أو موضحة ، مستمدا مصطلحه هذا من أوصاف الخيل ، والربط فى هذا المقام طريف يستحق الدراسة ، اما قدامة فقد صرح فى (نقد الشعر) بأنه يخترع مصطلحة بنفسه لانه لم يجد عند من كتب فى الموضوع قبله مصطلحات واضحة ، ولكن ثقافته اليونانية قد تكون أحد المصادر التى استمد منها ذلك المصطلح » ..

وفرق واضح بين لهجة الاثنين ، واحدهما



وهو جرونيباوم يصدر الحكم باطلاق وثانيهما وهو العالم العربى يوسف نجم يتحرز فى حكمه ، ولا يريد أن يغفل ما قد يدله على الحقيقة العلمية دون أن يصطبغ حكمه بصبغة الشبهة التعصبية»

وجرونيباوم لا يكتفى بتجريد الفكر الاسلامى من الحيوية والخلق ، ولا يكتفى أيضا بجعله تابعا للفكر اليونانى متأثرا به تأثرا كليا ، بل هو فى فصل نشأة الشعر العربى وتطوره يذهب الى أن وزن الرمل والمتقارب وربما الخفيف :

« يبدو وأنها جميعا اقتبست من أصول فارسية بهلوية» ص (١٣٥) وفى نفس الصفحة يقول « وربما كان للسريان فضل ما فى وضع المصطلحات الفنية الاولى مثل كلمة البيت أو الخيمة التى تدل على الوحدة الجزئية فى القصيدة « ويرد الدكتور كمال يازجى مترجم هذا الفصل فى الهامش ليثبت ان الكلمةعربية الاصل عربية الاشتقاق ..

ويستمر المؤلف فى هذا الخط فيقول فى ص ١٤٠ « وليس هناك شك فى ان الأعشى هو أكبر مالك لأزمة اللغة بين شعراء الجاهلية، وان المشاهد البهيجة فى قصائده تنم عن تأثير الشعراء الساسانين » ويقول ايضا فى (ص ١٤٢) « ان النثر التشريعى الدينى الذى يتمثل فى القرآن الكريم ، لا يحوى الا القليل فى التعبيرات المألوفة فى الشعر القديم ، ولكن التصوير الخيالى كما يتجلى فى وصف الامور الغيبية ، له ما يشبهه فى المواعظ السريانية » ٠

ونقترب من قمة هذه المحاولة فنجده يقول فى ص١٤٧ فى حديثه عن شعر الحب العذرى : « ففكرة الحب العامة ، المتجلية فى هذه

الحلقات الشعرية ، بما فيهـا من الباكية المؤثرة من جهة ، ومشاهد جهة أخرى ، تحمل أثرا واضحا من الى الحب ، التى تبعث الحياة فى القصة

ويقول أيضا فىص١٥٠ فى حديث الطبيعة :

« وقد عمل أبو تمام وابن الروم ترقية قوة النظرة الحديثة الى ال تحمل شبها من آثار كتاب اليونان

فالشعر العذرى ــ وهو خاصية أدت اليها ظروف مجتمعة فى الحي بعد الاسلام ، وحين انتقل الثقل ا بنى أمية فى الشـام ، ووصف ا تطور باختلاف الظروف الليبية ال الشاعر العربى حين ترك الجزيرة الى حقول الشام وبساتين العرا العباسى ــ عند الاستاذ جرونيباو آثار الحضارة الهيلينية ٠ أما فى الا هاتان الظاهرتان قبل موعدهما فى ا ولا فى غير البيئات التى ظهرتا فيه يناقشه الاستاذ جرونيباوم الذى ؟ على تقصى الاثر اليونانى أينما وجد يستطع الصمود أمام الحقيقة المناقشة والبحث ..

الا أن الاستاذ جرونيباوم يص الاغراق حين يتحدث عن النثر ال بين الظواهر النثرية العربية ، حتم الاسلوبية منها ، وبين آثار هيليني فيقول ان وصف المدن « يعود الاسلوب اليونانى المعروف التصديرى » (ص ٢٢٨) ويقول



أخرى من وصف المدن فى الادب العربى وهى استعمال الجمل الوصفيه القصيرة التامه من المبتدأ والخبر ولكن بدون فعل ، ترجع الى « الاساليب التى تبدو لنا فى الترانيم المسيحيه وما اليها من أدب مشابه » ويصل الى ان يقول ان نثر الحريرى متأثر بأسلوب الكاتب الاغريقى ميندر ويقول صراحة فى تحليله لمقاومة من المقاومات فى هذا الجزء من الوصف يقلد الحريرى أسلوب منيندر ص ٢٣٣ .. ويقول فى تعليقه على هذا الفصل (ص ٢٣٣ وما بعدها) الفقرات التالية » وهنالك دليل قاطع على أن أهل هذا النوع من الاصل يجب أن نفتش عنه فى الادب اليونانى » .. «على أن الادب العربى متأثر بالادب الاغريقى كما يظهر فى أدب الفراسة والقيافة » .. « أن فى المواعظ الاسلامية اثرا للاسلوب الذى يظهر فى المواعظ المسيحية وهذه بدورها كانت قد تأثرت بالاسلوب الاغريقى فى العصور الاولى للبلاد »... « ان هناك تشابه بين الادب العربى الذى يدور حول فضائل كذا وكذا وبين الادب الاغريقى الذى يسمى (الاسلوب المزخرف فى مدح الانساب) وقد درس مدح المدن فى الادب الاغريقى » ... « ولا نريد أن نقول جازمين أن المعرى قد تأثر بالاسلوب الاغريقى السفسطائى، ولكننا فى الوقت ذاته لا نستبعد امكانية هذا التأثر » ... « بهذا الصدد نقول انه يظهر أن الاساليب العربية النثرية فى وصف ، المدن ومدحها تحتذى فى اصولها تراكيب أو صياغات اغريقية كلاسيكية » ..

ولسنا نظن أننا قد قصرنا فى ايضاح موقف الاستاذ جرونيباوم من الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامى فهو كما سبق أن قلنا يدور فى حلقة مفرغة نلخصها فى كتابه هذا وفى غيره من الكتب تريد أن تؤكد أن الحضارة الاسلامية تقوم بدور « المعبر » بين الحضارتين الهيلينية والغربية وهو حتى فى هذا يحاول أن يرفع عن العناصر الاسلامية والعربية كل فضل أو اضافة . ويقول بوضوح فى (ص ٢٠٣) :

« وليس ثمة ما يوضح الاساليب الخاصة للتمازج الثقافى بين الشرق والغرب مثل تعاونهما معا فى حفظ التراث اليونانى وتطويره ، وتبدو الروابط بين الشرق والغرب على خير احوالها فى الدور الذى لعبه الشرق قبل نهاية تلك الحقبة ، فى انماء الاحساس الغربى، بعد ان عرف الشرق نفسه كيف يلبس حياته الشعورية بلبوس من النماذج العاطفية الهيلينية والنظرات النفسانية، وهى نماذج استطاع العالم الاسلامى أن يتمثلها وأن يبعث فيها حيوية جديدة، قبل أن يردها الى الغرب فى بدء صحوته » .

وقد استلفتت هذه المواقف أنظار السادة المترجمين فحاولوا الرد على بعض الملحوظات فى الهوامش ولكنهم لم يضيفوا الى هذا الفضل فضلا أكبر بمحاولة تقويم الآراء ذات الطابع العلمى التى قد تستهوى القارىء المتعجل ، بدراسات علمية تضع الامور فى نصابها .. واكتفى الاساتذة المترجمون بأن قالوا فى المقدمة « ان هذا الفلك الذى تدور فيه مقالات الاستاذ جرونيباوم لا يحمل فى حقيقته القول الحاسم فى أمور هى من أشد ما يمكن أن يختلف الناس حوله ، لانها أمور تقتصر دائما على الشواهد القوية الدامغة ، بل الى الشواهد المرجحة . اننا لا نستطيع أن ننكر التفاعل بين الثقافات ولكن الحكم على هذا التفاعل من جمع صور التشابه مزلة خطر ، لان التشابه لا يعنى دائما تأثير هذا فى ذاك بل انه يعنى أيضا أن المقدمات المتشابهة تؤدى الى نتائج متشابهة » وقالوا أيضا فى مكان آخر من نفس المقدمة « وثمة مأخذ آخر نقف عنده ، ونحسبه أثر فى طبيعة بعض هذه الابحاث ونعنى به قصور البحث عن الموضوع لاتساع

جوانب الموضوع وامتداده • فأى باحث يستطيع أن يستوفى الحديث عن روح الاسلام كما تبدو فى الأدب العربى فى بحث صغير ، مستمدة أحكامه من أمثلة محدودة •

وبعد فهذا الكتاب مجموعة أبحاث تضم أحد عشرة بحثا بينها تحقيق لديوان شعر ، تلتقى كما قلنا فى الدفاع عن قضية واحدة وأن تعددت موضوعاتها واختلفت مجالات الدراسة التى تتناولها ، فمن البلاغة والشعر الى النثر الى الحضارة الاسلامية الى شعر الحب الى مقامات الحريرى ، كلها دراسات تتميز بالدقة عند الجزئية•• وبالبحث الجاد العميق فى كل تفصيلة على حدة ، ولكن النتائج دائما توجه لتصب فى الرافد الكبير ، وهو القضية التى الزم الكاتب نفسه بها الزاما ، فأفسدت عليه بحثه ، وان أرضت موقفه الوجدانى من الحضارة الاسلامية، ونحن قد نستفيد من منهج بحثه الجاد المخلص ، ولا بد أن نستفيد من نتائجه الجزئية ، ولكننا يجب أن نحكم مواقفنا النفسية أيضا فى الموافقة معه على النظرية الكلية الشاملة التى يريد أن يخرج بها •• فقد آن الاوان لنتخلص من عقدة التبعية ، ولان نؤمن بقدرتنا على البحث والدراسة لتأصيل ثقافتنا من عند منابعها الأصلية ، دون حاجة الى التماس هذه الاصول فى حضارة أخرى •• ولسنا ننكر أن حضارتنا الاسلامية استقطبت ما سبقها من حضارات وتفاعلت مع هذا الذى استقطبته لتقدم الى البشرية حضارة كاملة اسلامية الطابع والروح ، ولينقل العالم الغربى بعد ذلك منها متأثرا بها مستفيدا من جهدها واضافاتها

وفى تاريخ كل حضارة تجتمع المؤثرات البيئية والاجتماعية والاقتصادية لتضاف الى المأثور الثقافى الذى ورثه أصحاب هذه الحضارة من كل من سبقوها ليتكون النموذج الحضارى الجديد •• ولا يعتبر هذا التأثر نقلا الا عند أصحاب العصبيات • وهو قد يفيد فى البحث عن صلات الحضارات بعضها ببعض ، وعن مجال التقاء الشعوب حضاريا وفكريا ••• ولكنه لا يعتبر على الاطلاق تأثرا كليا شاملا ، وان كان اثبات التأثر هو الهدف الذى لا هدف وراءه عند بعض المستشرقين ومنهم كاتبنا هذا ••

ان أصحاب الرأى القائل بأن جهد المستشرقين لا تلوثه شائبة من عصبية يرد عليه هذا الكتاب العلمى الطابع المنهجى الجهد ، ولكنه أيضا السام الهدف المغرض الاتجاه •

ونحن نقدر للاستاذ جرونيباوم واخوانه المستشرقين جهودهم المخلصة فى الكشف عن حضارتنا بذلك الدأب العلمى الذى عرف عنهم ، وبذلك الاخلاص المتصرف الذى بهر أنظار الرواد من أعلام الفكر العربى المعاصر، ولكننا ننكر عليهم هذا الموقف الذى يبدو أنه ما يزال يحمل تلك النزعة التى عبر عنها جرونيباوم نفسه حين قال: « نزعة مزدوجة نحو الاسلام يجتمع فيها الخوف والاعجاب ويمتزج فيها الكره بالشوق على نحو عجيب » •

« فلنأخذ من علمهم الاعجاب والشوق، ولنحذر من نتائج ابحاثهم الكره والخوف ••

والواقع أنه لا بد للدارسين فى أدبنا العربى من الوقوف عند هذا الكتاب وأمثاله من أعمال المستشرقين ليجددوا النظرة لمفهوم البحث العلمى عندنا ، وليخرجوا من حدود الجمع والتبويب ، الى أفق المقابلة والنتائج التى أن وفقت فهو خير، وان لم توفق فهى اثارة لاذهان الباحثين من بعدهم •

فاروق خورشيد

رمز الطفل

دراسة فى أدب المازنى



بقلم : الدكتورة نبيله ابراهيم

صدر للدكتور مصطفى ناصف فى خلال هذا العام عدة دراسات نقدية من بينها كتابه « رمز الطفل – دراسة فى أدب المازنى » . ويوضح الكاتب منهجه فى الكتاب فيقول فى المقدمة «ليس الكتاب الذى بين يديك الا محاولة فى تطبيق أفكار وصفتها فى كتب المعنى السابقة وعلى رأسها فكرة أبعاد المعنى » . وأبعاد المعنى يبحث عنها المؤلف فى النص نفسه وليس فى التكنيك أو فيما حول النص .

وبهذا يتحدد منهج المؤلف فى كتابه رمز الطفل فى أنه دراسة لابعاد المعنى فى كتابات المازنى النثرية بصفة خاصة ، ومن هذه الدراسة استطاع أن يستخلص فلسفة المازنى فى شتى جوانب الحياة . فقد ركز المؤلف على النص تركيزا دعاه الى تأكيد أن كل ما كتبه المازنى على وجه التقريب يحتمل معنيين أو أكثر . وبعبارة أخرى أن الفاظ المازنى وعباراته رموز ينبغى أن تؤول . ولو أننا أحصينا كلمة الرمز فى الكتاب لألفيناها ترد كثيرا .

فهو يقول فى صفحة ٢١ فى عرضه لقصة ابراهيم الكاتب : « المرأة عند المازنى هى رمز الانسان أو حياته » . ويقول فى صفحة ٢٢ «ماتت زوجة ابراهيم ، ومعنى هذا أن فكرة المبدأ واقامة الحياة الاجتماعية والولاء للنظام قد ماتت فى نفس صاحبنا » ثم يستطرد بعد ذلك فى عرض قصة حب ابراهيم لمارى وشوشو وليلى ، ذلك الحب الذى لم ينته قط النهاية الطبيعية ، أى بالزواج ، ويعلق على ذلك ويقول ص ٣٢ : « وأظنك الآن عرفت أن قصة الحب قصة رمزية ، وأن تثليث الحب رمز بارع ، وجدان الثلاثة فى واحد أو وجدان الواحد فى ثلاثة ، هذه هى المشكلة » .

وكما يقول ص ٥٢ وهو مازال بصدد قصة ابراهيم الكاتب : « الفنان كالنافـــورة المحترقة هدفه هو التوتر بين وعى الحياة ووعى الموت • هل نحن مغالون اذن فى أن نقول ان تجـربة المرأة فى أعمال المــازنى وفى عمله عن أبراهيم الكاتب خاصة أقرب الى حقيقة الرمز ؟ »

ثم يقول ص ٨٤ فى دراسته لقصة « ثـلاثة رجال وامرأة » : « ودخول محمود لميدان السباق دون أن يصيبه غرم الراغب فى التجربة وبذله ، رمز لحياة محمود • وما بين الجياد من تنافس هو ما بين الناس • والجياد كما نعلم ترمز أحيانا الى المرأة الجميلة المرحة الباحثة عن حريتها • » وفى ص ١٢٥ : « من أجل ذلك أصبحت الطفولة (ويشير فى ذلك الى قصة عود على بدء) رمز الحياة النقية التى لاينقصها الاحساس بالفناء والتفكير فيه» •• ولكن الطفـــولة من حيث هى رمز تعطى دلالات متناقضة ، تعطى مبدأ الحياة النقية من الموت ، وتعطى مبدأ الحياة التى توشك على الموت » •

هذه الأمثلة وغيرها تبين لنا كيف أن المـؤلف حرص على تفسير أعمال المازنى بوصفها رموزا لأحوال نفسية خفية • وربما كان من الأفضل أن يشرح المؤلف – مادام قد ركز دراسته حول دلالة الرمز – مفهوم الرمز على وجه التحــديد وعلاقته بالعمل الأدبى بوصفه كلا ، وذلك قبل أن يغوص فى رموز المازنى • وربما اكتفى المؤلف بما كتبه عن الرمز فى مؤلفاته الأخرى • واذا رجعنا الى ما كتبه الكاتب فى فصل « التحليل النفسى وأثره فى مفهـــوم المعنى » « من كتابه » « دراسة الأدب العربى » ، فاننا نرى أن الكاتب ركز اهتمامه حول أثر التحليل النفسى فى تعميق مفهوم الفن والأدب • ومع ذلك فان المؤلف لم يترك الفصل دون محاولة تعريف الرمز ، فهـو يقول فى صفحة ١٣١ من الكتاب المذكور « الرمز فى الحلم والفن تعبير غنى لما يحمل من معنى متعدد كثير ، والرمز نوع من التعبير غير المباشر لايسمى الشىء باسمه ، بل يتجنب فيه الوصف المسـتقيم المباشر من أجل أن يخفيه أو يظهره بطــريقة لافته • الأرجح أن الرمز يظهر الشىء ويخفيه معا فى وقت واحد • والرمز على هذا يدخل فى تكوين مسافات مختلفة • فهو يدخل فى مسافات عقلية ولا عقلية أو هو يدخل فى سلسلة من الأفكـار الواعية وغير الواعية » •

واذا نحن تأملنا تعريف المؤلف للرمز على هذا النحو ، أدركنا أن الاستعارة تشارك الرمز هذا التعريف • فالاستعارة نوع من التعبير غير المباشر لايسمى الشىء باسمه ، بل يتجنب فيه الوصف المستقيم • وربما شاء المؤلف عن عمد أن يوسع دائرة الرمز ، فأدخل فيها الاســتعارة • فهـو يستطرد فى شرح مفهوم الرمز ويقول ص ١٣٨ : « ولا ريب فى أن الغرض الأخير من ارتياد التحليل النفسى للفن هو توضيح الأفكار الاساسية الكامنة وراء المضــمون الظاهر للعمل الفنى • ومن ثم نالت الصور فى الشعر عناية جمة • فالصور ذات دلالتين اثنتين ، احداهما ظاهرة والثانية خـافية ق، تؤثر فى عقل القارىء منذ القراءة الأولى تأثيرا لا يستطيع أن يتبين مرجعه • ان الشاعر يتخير كلمة أو صورة يؤثرها على غيرها لأسباب لايعلمها، ولكنها ذات تأثير حاسم فى نجاح عمله الفنى •

وعلى ذلك يمكننا أن نقول ان الرمز من وجهة نظر المؤلف ، هو كل كلمة أو صورة تحمل معنيين ، أحـدهما ظاهر والآخر خفى ، ولايهمنا المعنى الظاهرى فى تفسير النص بقدر مايهمنا معناه الخفى ، واذا نحن انسقنا وراء هـذا التعريف ، فربما فقد الرمز دلالته الخاصة العميقة ، تلك التى تميزه من الاستعارة والتشبيه التمثيلى .

حقا قد يكون كل من الاستعارة والتشــبيه التمثيلى ذا طابع رمزى ، ولكن اللغة أصـبحت تستخدم اليوم استخداما تكنولوجيا بحيث لم يعد هناك مجال للنزاع حول المفهومات • ففيم يختلف الرمز اذن عن كل من الاســتعارة والتشــبيه التمثيلى ؟ يتميز الرمز عن الصور الفنية الأخرى بخاصيتين : أولا بوصفه مبينا لنوع التجربة ثم بوصفه البؤرة التى تتبلور حولهـا التجـربة وتوجه نفسها • أما بالنسبة للخاصــية الأولى فالرمز يتحرك الى الخارج ، وأما بالنسبة للخاصية الثانية فهو متحرك فى الداخل متمركز ، بمعنى أن كل ما فى العمل الأدبى أو الفنى يلتف حوله ويلقى عليه الضوء • ومن هنا نرى أن تفســير الرمز بوصفه بديلا لشىء أو بديلا لفكرة لا يوفى الرمز حقه ، لأن الرمز فى الأصل بؤرة تشـع منها علاقات ذات قيمة انسانية عالية • وهـذه البؤرات المختلفة تكون فى الحقيقة موضوعات التأمل

التى تكشف عن القيم الأولية للحياة ، تلك التى تتلخص فى علاقة الانسان بالكون والحياة • ومن ثم كان الميلاد والموت والحب والخوف والخلود رموزا استقرت فى ضمير الانسان منذ القدم وظهرت فى طقوسه كما ظهرت فى آدابه القديمة والمتطورة• وأما السبب الذى دفع الانسان الى الانشغال بهذه الأمور منذ القدم ، فهو صراعه مع كافة القوى المهددة له ، ورغبته الملحة فى الانتصار عليها ، لأن مايهمه ، تمهيد الطريق الى التغييرات المستقبلة فى سبيل تحقيق الحياة الكاملة • فالانسان شأنه شأن الحياة ، مجرى يتدفق الى المستقبل ولا يتراجع الى وراء •

هذه الطبيعة الصافية فى الانسان وهذا الدافع النفسى الذى يدفعه الى تحقيق الحياة الكاملة ، يفسران لنا كل ما يستقر فى اللاشعور الجمعى واللاشعور الفردى ويخرج فى شكل تعبير رمزى سواء تمثل هذا فى الأحلام أم فى صنوف التعبير الفنى • فقد يكون الرمز معبرا عن تفاؤل الانسان فى سعيه لتحقيق الانسان الكل ، كما يبدو ذلك واضحا فى أشكال التعبير التلقائية فى الأدب لشعبى ، ويتحقق ذلك فى أوضح صوره فى رمز الطفل البطل • وقد يكون الرمز على خلاف ذلك



معبرا عن عدم رضاء الانسان عن وجوده فى الحياة لانه لم يتمكن من تحقيق الانسان الكل • وقد سمى يونج هذا الجزء القائم فى تكويننا النفسى ، والذى يعد المنظم والمشكل لحياة الانسان ، بالنموذج الأصلى • Archetype وقد أشار المؤلف فى ختام بحثه اشارة عابرة الى نظرية يونج هذه ، ولكنه لم يوضحها ولم يحاول أن يستغلها فى بحثه • يقول المؤلف ص ٣١٩ : « لقد قال لنا المازنى فى أماكن كثيرة وبطرق غير مباشرة غالبا، ان مقاييس النضوج والتقدم ينبغى أن تراجع بين وقت وآخر • ان روح الانسان هو المهم ، وهذا الروح كيف نربيه بمعزل عن تطلع (الطفل) المستمر الى المستقبل فيكون قوة تقاوم وتعدل من تذكر الرجل الهرم للماضى • ان هذا الروح يعنى فى ظل رمز الطفل القوى الشابة المتيقظة والاهتمام بالجوانب اللاواعية المفيدة التى تحمى الانسان • وهذا هو نفسه – فيما أذكر – تفسير يونج لرمز الأطفال • »

والحق لو أن الكاتب استغل فكرة يونج فى النموذج الأصلى الذى فسر من خلاله رمز الطفل ، لربما توصل المؤلف الى شرح رمز الطفل الذى يبدو واضحا فى قصة المازنى « عود الى بدء » بصفة خاصة ، شرحا موحدا

وقبل أن نأخذ فى المقارنة بين تفسير المؤلف لرمز الطفل فى قصة « عود على بدء » وبين تفسير هذا الرمز من خلال نظرية يونج ، نتحدث عن استخدام الكاتب للرمز فى تفسيره لأعمال المازنى •

ليس هناك أحد يختلف مع المؤلف فى أن الرمز هو ما يحتمل معنيين أو أكثر ، ولكن ربما اختلف معه البعض فى الاسراف فى استخدام اصطلاح الرمز ، الى حد أن أصبح المؤلف يرى فى كل كلمة أو عبارة كتبها المازنى رمزا ، ذلك أن الرمز هو – كما سبق أن ذكرنا – هو البؤرة التى تتجمع حولها أحداث قصة أو مسرحية أو قصيدة ، وليس تفسيرا • لكلمة أو عبارة •

وقد يكون الرمز معدا للكاتب من قبل بمعنى أنه موروث مع تراث الانسانية قبل رمز الطفل . فاذا استخدم الكاتب هذا الرمز في عمل له ، فمن الافضل أن يفهم مغزى هذا الرمز أولا في التراث الادبى ، لان هذا يلقى الضوء على عمله اما اذا استخدم الكاتب ر·· - ـديدا ، فنحام الرمز ف



بأدية وظيفته الفنية ، يتوقف في هذه الحالة على جهد الكاتب وحده ، كما هو الحال في رمز الشجرة في مسرحية « ياطالع الشجرة » لتوفيق الحكيم .

ولعلنا نلاحظ أن رمز الطفل في قصة « عود على بدء » ورمز الشجرة في مسرحية الحكيم ليسا مجرد كلمة تشرح وتفسر ، وانما يعد كل رمز البؤرة التي تشع منها الأضواء ، وتتلاقى عندها الأضواء .

ونعود فنستشهد بما كتبه الكاتب في هذا الشأن ، لكي نبين أن الاصرار على استخدام الرمز في كل تفسير أدبي يوقعنا في التناقض والحيرة ، فضلا عن أنه يعرض هذا الاصطلاح القيم الى الابتذال .

يقول المؤلف ص ٢١ في تفسيره لقصة «ابراهيم الكاتب» : « المرأة عند المازني هي رمز الانسان أو حياته » على أننا لم نفهم بعد ذلك كيف يمكن أن تكون المرأة في هذا العمل رمز الانسان أو حياته ، فضلا عن أن الكاتب لم يحاول أن يشرح القصة كلها من خلال هذا الرمز . ثم يقول كذلك ص ٣٢ وهو مازال يستخرج مغزى هذه القصة : « وأظنك الآن عرفت أن قصة الحب قصة رمزية ، وأن تثليث الحب رمز بارع ، وجدان الثلاثة في واحد أو وجدان الواحد في ثلاثة ، هذه هي المشكلة » فاذا حاولنا أن نتبين السبب الذي حدا بالكاتب لأن يجعل القصة رمزية فاننا نلمسه فيما يذكره المؤلف نفسه من أن القصة تعبير صادق عن شعور فنان يود أن يحطم العوائق الاجتماعية التي اصطلح عليها مجتمعنا بل سائر المجتمعات . أرى أنها كما يقول تعبير عن « الشعور بالحرية والانطلاق وتوكيد الذات واعلاء صوت الغريزة » ولا أعتقد أن القصة تخفي فكرتها ومغزاها الى درجة أنها تخفي الرمز الذي لا يكتشفه كل قارىء أو ناقد .

لقد ذكر المازني في مقدمة مسرحيته « غريزة المرأة » أن زوجته ماتت وحزن عليها . كما ذكر أنها عانت كثيرا من عشرته نتيجة رغبته في الانطلاق لا في الاستقرار الذي تسعى اليه المرأة . ولكنه راجع نفسه وأدرك أن طبيعة المرأة التي تخالف طبيعة الرجل ينبغي أن ترعى في معاملتها . فأحسن معاملتها بضعة سنين ثم ماتت من بعدها . وربما حكى لنا المازني تجاربه بعد ذلك في قصته « ابراهيم الكاتب » . فطبيعة الفنان التي تسعى دائما وراء الانطلاق والهروب من القيود ، تركته يهيم كالفراش الذي يود أن يمتص رحيق كل زهرة دون أن يقف عند زهرة واحدة يظل يمتص رحيقها حتى تذبل . ولهذا فقد أحب ابراهيم كلا من ماري وشوشو وليلى حبا صادقا ، وكان يجد عند كل منهن رحيقا متنوع المذاق وان كان كله حلو المذاق . وهكذا انتقل ابراهيم من ماري الى شوشو ثم الى ليلى . وهل يعني هذا ختام تجربته ؟ لا ، انه ختام التجربة في القصة وليس في الحياة . ولا مفر من أن يشعر الانسان بفشله بعد أن تتكرر التجربة على هذا النحو عدة مرات . فاما أن يستسلم لهذا الفشل ، أو يستسلم لقانون الحياة التي تتحرك دائما الى أمام وليس الى الوراء .

هذه هي قصة ابراهيم الكاتب كما تتضح لكل قارىء مدرك لطبيعة الفنان ، وكما سبق أن شرحها الأستاذ صلاح عبد الصبور في كتابه « ماذا يبقى منهم للتاريخ » . ولا أعتقد بعد ذلك أن القصة تحتمل اقحام رمز المرأة أو رمز الثلاثة عليها ، دون أن نظفر بتفسير كامل لموقف هذه الرموز من القصة بوصفها كلا .

ونعود بعد ذلك الى قصة المازني « ثلاثة رجال وامرأة » ، فنجد أن الكاتب يفرض منهجه مرة أخرى في تفسير حوادث القصة الجزئية ، يقول ص ٨٤ : « ودخول محمود لميدان السباق دون أن

يصيبه عزم الراغب فى التجربة وبذله ، رمز لحياة محمود • وما بين الجياد من تنافس هو ما بين الناس • والجياد كما نعلم ترمز أحيانا الى المرأة الجميلة المرحة الباحثة عن حريتها • كذلك كان محمود لا يعرف من شئون الجياد شيئا ، أو لنقل لا يحيط علما بالمرأة أكبر حبال الحياة ، ولم يكن يدرى - على الخصوص - كيف تعامل محاسن ، هذه الفتاة التى تجرب حريتها فتخطىء وتصيب ، كما يربح الجواد ويخسر » واذا نحن تعمقنا تفسير المؤلف لرمز الجياد لوجدنا اضطرابا فى هذا التفسير فهو تارة يقول « وما بين الجياد من تنافس هو ما بين الناس » ومعنى هذا أن الجياد ترمز للناس ، كما أن سباقها يرمز الى ما بين الناس من تنافس • ولكن يعود فيقول : « والجياد كما نعلم ترمز أحيانا الى المرأة الجميلة المرحة الباحثة عن حريتها » وهذا يفسر - من وجهة نظر المؤلف - قول المازنى ان محمود « لم يكن عليه الا أن يجعل باله الى مناظر الناس لا الى الخيل ، والى ما يكون منهم » • فهل نفسر كلمة الجياد بوصفها رمزا للمرأة أم بوصفها رمزا لصراع الناس فى الحياة ؟ لا ندرى • والنص كما نرى يوضح نفسه دون تأويل • فمحمود شخصية غير متكاملة ، لأنها ترى القشور دون اللباب •

وبالمثل فان مفهوم القصة أوضح من أن ننقب فيها عن الرمز الذى ينبغى أن يؤول ليوضحه • فهى تتركز حول شخصية محاسن بطلة القصة الأولى ، وعلاقتها بثلاثة رجال هم حليم ومحمود وحمدى • ومحاسن نشأت نشأة غير سوية ، اذ كانت أمها مستهترة بالتزامات الأسرة الكاملة • وكانت محاسن تعلم أن أمها تستغفل أباها وتصادق الرجال خفية • ولم يكن يخفى على الأم أن ابنتها تعلم بذلك كل العلم • ومن ثم تركت لابنتها الحبل على الغارب حتى تنشغل بأمورها ، الأمر الذى أوقع محاسن فى الخطأ • ومع ذلك فان محاسن لم تتماد فى الخطأ ، وانما كانت على وعى تام بحياتها المستقبلة • ولذلك فقد فاقت لنفسها دفعة واحدة ، وأخذت تبحث عن الطريق الذى يوصلها الى الحياة المكتملة ، فدخلت فى معترك الحياة وأنشأت علاقات طيبة بينها وبين زملائها معتمدة فى ذلك على شخصيتها الحرة الكاملة •

ونظرت محاسن بعين ثاقبة متيقظة للرجل الذى يمكن أن تثق فى شخصه فتتزوج به • وعلى الرغم من أن كلا من حليم ومحمود كان مثقفا ، الا أن ثقافتهما لم تساعدهما على اكتمال شخصيتهما • فرفضت محاسن حليم ورفضت محمود وجاء بعد ذلك دور حمدى • وحمدى بدأ حياته مهتز الشخصية كما فعلت هى تماما ، أو لنقل ان الظروف دفعته الى ذلك كما فعلت معها • ومع ذلك فقد جد حمدى يبحث عن التخلص من أسر الماضى ، ليدخل فى حياة كلية مع الوجود كله • وبهذا نشأ الانسجام الروحى بين محاسن وحمدى • ويتضح هذا من الصورة التى رسمتها محاسن لفتى أحلامها • قالت : « طويل عريض الكتفين ، حسن الشورة ، وذقنه فيها نقرة صغيرة ، وهو مرهوب السن ، ولكنه رقيق القلب ، عطوف على الضعفاء ، لايهاب شيئا • وهو مرح يقهقه حين يضحك ، ولكنه فى صوته نبرة حزن لأنه قاسى فى حياته شدائد وذاق آلاما » •

ألا تكشف هذه الصورة عن شخصيتها هى نفسها ؟ بل أليست هى صورة الرجل المكتمل الذى تود كل فتاة ناضجة ذهنيا أن تتزوج به ؟

لاشك أن الالفاظ الفنية ذات دلالات بعيدة ، وأنهـا محملة بتجارب الكاتب النفسية ، وبخاصة إذا كان مصدرها كاتب كبير كالمازنى • ولكن هذا لايعنى ان المازنى لم يكتب سوى رموز ، لقد دابنا فى هـذه الايام عـلى الاسراف فى استخدام الرمز ، بحيث اننا نخشى أن يصبح كل عمل أدبى عملا رمزيا يؤوله كل قارىء وفق هواه .

على أننا اذا شئنا أن نبحث عن الأصل النفسى لقصة « ثلاثة رجال وامرأة » ، فربما أسعفتنا نظرية يونج من « النموذج الأصلى » • فاذا كان النموذج الأصلى هو الطبيعة الصافية الكامنة فى نفس الانسان ، والتى تدفعه الى تحقيق الحياة الكاملة رغم كل العقبات ، فان حياة محاسن تكشف تماما عن أثر هذا « النموذج الأصلى » فى سلوكها • لقد تربت محاسن تربية لا تؤهل الفتاة فى الحقيقة للوصول الى الحياة الخصبة الكاملة • بل انها على العكس دفعتها الى الوقوع فى الخطأ • ومع ذلك فقد نهضت محاسن من عثرتها لتسير فى طريق سوى • ثم توجت تجارب

حياتها باختيارها الموفق لشخصية حمدى • وفى الوقت نفسه ظلت الشخصيات الأخرى فى القصة باهتة لأنها لم تسع سعى محاسن وحمدى • ولا نعنى هنا السعى البدنى أو العقلى فحسب وانما نعنى السعى النفسى •

وربما كشفت القصة عن مغزى آخر اهتدى المؤلف الى شرحه شرحا موفقا وهو العلاقة بين الثقافة والبنية الروحية » فهو يقول ص ٨٧ : « ولأمر ما كانت صورة المتعلمين فى أعمال المازنى أقرب الى هذه الفاقة الروحية • كانوا يدينون بالتعبير الفردى عن أهوائهم ومطالبهم ، وكانوا يعيشون على شخصيات منفصمة أو مزدوجة ، يقولون مالا يفعلون ، ويعلمون بما لا يشعرون » •

وبقى أن نشير الى قصة « عود على بدء » وهى من أروع ما كتبه المازنى ، وترجع روعة هذه القصة الى احتوائها حقا على الرمز ، رمز الطفل ، والرمز هنا كفيل بأن يفسرها كاملة ، أى أنه يقع فى بؤرة القصة فيكشف عن نوع التجربة من ناحية ، ويجذب الأحداث كلها حوله من ناحية أخرى • ولا ترجع أهمية القصة الى هذا فحسب، وانما بلغت قمة الفن والجمال فى خلقها الأسطورة حول الرمز • فالقصة حلم أو لنقل حكاية ذات طابع أسطورى • ومن أهم خصائص الأسطورة احتواؤها على طابع الغموض والسحر ، ثم المزج التام بين الرموز والتجربة الفنية والوصول بها الى قمة الحقيقة الأدبية •

ونسوق للقارىء بعض حوادث هذا الحلم حتى يجول فيها بفكره ويحاول تفسيرها بحيث يبدأ من رمز الطفل وينتهى اليه •

« ثم رأى سيدة أخرى بدت أول الأمر زوجة ثم اذا بشىء يحجب هذه الناحية من ادراكه ، ويرتمى فى حجرها ، ويكون معها كما كان الولد مع أمه • سيدة مزدوجة الشخصية يراها تارة أما وتارة زوجة » • « واليوم عيد ميلاده • وهذا العيد مفاجأة أخرى له • وما أكثر المفاجآت التى تصادفه فى هذا الحلم العجيب • فقد عرف أن له عما آخر الى جانب أمه ، وأنه مدعو لحضور هذا الحفل الفريد بميلاده السعيد • وهذا العم ذو صورة كريهة ، وهو ينطوى على محبة كبيرة لصاحبنا واسمه فى المنام « سونة » • ومع ذلك فان سونة هذا لا يستطيع أن يبادله الحب ، انه يستمع اليه وهو يناجى أمه وزوجه بالحب ، ويرغبها فى الزواج بعد أن قضت سبع سنوات كاملة فى الترمل • قال لها : ثم ان سونة يحتاج الى عنايتنا ورعايتنا وأنت وحدك لا تقدرين على شىء » •

ثم أراد سونة أن ينتقم من عمه هذا بأن اتفق مع الجناينى على أن يعطيه كيسا من النمل لكى يفرغه فى ساقى المنامة التى يلبسها عمه • ودعا الى حفل عيد الميلاد حمادة وسعيد وهما شديدا الشبه بولدى المازنى • « وعبثا به ما شاء لهما العبث ، ورشقا له الورد فى شعره ، ونثرا غلائل الزهر عليه تشبيها بالنبات وتشنيعا عليه ؟ • »

ثم أراد سونة أن يتصل بأهله فقصد الى التليفون • فما كاد يرفع السماعة حتى سمع من ينهره ويأمره بالخروج ويقول له ان استراق السمع عيب • ثم خرج بعد ذلك من الشرفة منتقلا الى الشجرة التى تسلقها عم أحمد الجناينى لما جاءه بالنمل ، وبعد مشقة عظيمة صارت قدماه على الأرض • وكان الليل مظلما • فرأى قطا يرشقه بنظرة جامدة لا يتغير تعبيرها • وانه ليخبط فى هذا الليل ، واذا بزمارة الانذار تنطلق مؤذنة بغارة جوية • » ولم أكن أعرف أن سونة مذاع كذاب ، فقد راح يقول ان ماردا سد الطريق فى وجهه ، فرماه بآية الكرسى • وزعم أن ذات مئزر أبيض همت بعناقه وضمه الى صدرها الذى كانت الابر البارزة تلمع منه فى الظلام •ولو ضمته لا تغرزت الابر فى صوره فمات • » « وهاله هذا كله بعد أن رجع الى أمه وأهله الجدد ، وشق على عقله ما أصابه ، وأخذه النوم فرأى نفسه ولدا صغيرا فى كوخ ساحرة تسخره لخدمتها ، وتناوله دلوا عظيما ، وتبعث به الى الجبل ، فلا يزال يصعد فيه حتى يبلغ قمته ، وهناك يملؤها ويعود بها اليها » •

ثم فاق الحالم من حلمه ، « ووثب على الأرض، وذهب يعدو الى الباب ودخل على زوجته فى

غرفتها ، وقال صائحا قومى يا امرأة • بسرعة • انظرى الى •• ألست كما كنت • هل تغيرت ؟ قالت ماذا جرى لك • ما هذا النط الذى تنطه كالقرود » • « وزار الشيخة صباح مرة أخرى مع زوجته ، وتقدم اليها قائلا خذى هذه الساعة• انها ساعة أمى • وكنت أعتز بهـا وأضن ، شفتيها ابتسامة ، ورفعت الساعة الى أذنيهـا وأصغت ، ثم هزت رأسهـا مسرورة ، ونحت الشملة عن صدرها ، ووضعت الساعة هنـاك قريبا من قلبها • ثم تناولت رأسه بين يديهـا وتحركت شفتاها بدعاء لم يسمعه ؟ » •

هذه هى الحوادث الأساسية فى هذا الحلم • ويمكننا أن نلخص أهم ملامحها فيما يلى : أولا : أن السيدة التى رآها الطفل سونة كانت مزدوجة الشخصية فهى تارة أما وتارة زوجة •

ثانيا : أن الطفل سونة ليس طفلا عاديا ،لأن الطفل العادى لا يثير سخرية الآخرين وانمـا يثير عطفهم ومحبتهم • ونحن نلاحظ أن السخرية تصدر بصفة خاصة من حمادة وسعيد ، وهمـا شديدا الشبه بولدى المازنى •

ثالثا : ظهرت فى الحلم شخصية كريهة لسونة هى شخصية عمه • وأما سبب كرهه لعمه فهـو أنه كان يتودد الى أمه أو زوجه • وقد بلغ به الكره لعمه أنه رغب فى الانتقام منـه بألاعيب طفولية تتناسب مع سنه •

رابعا : تبدو العقبات كثيرة فى حياة هـذا الطفل • فقد شاء أن يتصل بأهله تلفونيا ،ولكن الاتصال لم يكن طبيعيا • ثم شاء أن يهبط على شجرة ، وبعد مشقة عظيمة صارت قدماه على الأرض • كما أخذ يصـطدم فى الليل الدامس بأشكال أزعجته • فهذا قط يرشقه بنظرة جامدة ساكنة • وهذا ما رد يسد طريقه • ثم هذه ذات مئزر أبيض تهم بعناقه وقد غطت صـدرها ابر بارزة تلمع فى الظلام •

خامسا : لم يصل الطفل سونه بعد هـذه المشقات الى نهاية مريحة ، وانما وجد نفسـه فى كوخ ساحرة تسخره لخدمتها ، فهو يصـعد الجبل ليملأ لها الدلو ثم يعود بها اليه • وطبيعى أن يتساءل المؤلف عن مغزى هذا الحلم أن لنقل أسطورة رجل ارتد طفلا ، وعاش كل هـذه التجارب ، ولنمعن النظر معا فى تفسير المؤلف لهذا الحلم • يقول فى صفحة ١٢٤ وما بعدها • « لم يستطع المازنى أن يبرأ من الشعور بالموت • وكلمـا ألح العمر ، وتقـدمت الأيام أدرك أنه يقترب من النهـاية المحتومة • وليس فى ذلك غلو ، فالدلائل عليه كثيرة فى أدب المازنى ، وقد عاد صاحبنا طفلا » • ثم يسـتطرد ويقول • « وللطفولة معان كثيرة ، ولكن حسبنا فى هذا المقام أن نقول ان صاحبنا يعود الى الطفولة لأنه يريد أن يستبقى الحيـاة المدبرة ، ويخشى أن يدركه الوهن ،وما يسلم اليه الوهن من العواقب التى لا مفر منها ••• والطفولة فى أدب المازنى تحقق أمرين اثنين ، تحقق الشعور القوى بالحياة وحبها والشغف بكل تجاربها الجديدة ، وتحقق الشعور القـوى بالموت الذى تنتهى اليـه كل تجربة جديدة • وهذان هما قطبا التفكير عنـد هذا الفنان : من تعلق بالحياة أهمه الموت ، ومن أهمه الموت زاد حرصه على الحياة » •

وهل يمكن أن يوضح رمز الطفل على هـذا النحو كل جوانب هذه القصة ؟ فما علاقة رمز الطفل بوصفه الشعور القوى بالحياة والشعور القوى بالموت بالمرأة التى كانت أما وزوجـة فى الوقت نفسه ؟ وما علاقته بالعم الذى شاء الطفل أن ينتقم منه لأنه يتودد الى الأم ؟ ثم ما علاقتـه بسخرية الولدين ، ولدى المازنى ، منه وهـو طفل ؟ وأخيرا ما معنى ختام التجربة أن صاحب الحلم ، حينما أفاق من حلمه ، زار الشـيخة صباح وقدم اليها ساعة أمه ؟

هنا نلاحظ ان تفسير المؤلف لرمز الطفل لم يلق الضوء على التجربة بوصفها طلاء وبسبب ذلك انه ركز على تاويل الرمز منفصلا عن جوهر التجربة ولم يبق بعد ذلك سوى ان نبحث عن تفسير لرمز الطفل يربط بين احداث الحلم ورموزه المتعددة • فليس الطفل الرمز الوحيد فى هذه القصة ذات الطابع الاسطورى ، ولكنه الرمز الاساسي الذى لايمكن ان تفسر الرموز الأخرى الا من خلاله •

وقد سبق أن ذكرنا أن رمز الطفل قديم فى التراث الأدبى الانسانى . ومن ثم يتحتم علينا أن نعرف شيئا عن هذا الرمز القديم ، فربما ألقى الضوء على رمز الطفل عند المازنى . والطفل البطل فى الاساطير والحكايات الشعبية والخرافية تحقيق للنموذج الاصلى الذى يستكن فى اللاشعور الجمعى . واذا كان هذا النموذج الاصلى يدفع الانسان دائما أبدا الى تحقيق الحياة الكاملة ، فان الطفل منذ أن يولد ويكبر يسعى الى تحقيق ذلك . على أن هذا لا يتم فى سهولة ويسر ، وانما تصادفه العقبات تلو العقبات التى يتغلب عليها بفضل القوى السحرية واذا به بعد ذلك يصبح البطل المرموق أو الانسان الكل . وليس فى وسعنا أن نطيل فى شرح هذا الرمز وانما نود أن نحيل القارىء الى ما كتبه العالم يونج فى هذا الموضوع .

أما الطفل فى قصة « عود على بدء » فلا يمثل بداية الحياة كما هو الحال فى الاساطير والحكايات الشعبية ، وانما يمثل فكرة الارتداد. وفكرة الارتداد هذه ترتبط كل الارتباط بالتجربة التى عاناها هذا الطفل . انها تفسر لنا شخصية الرجل الذى لم يستطع أن يحقق النجاح فى ارتباطاته مع الوجود النسبى والوجود الكلى . وأما الوجود النسبى فيتمثل فى علاقته بمن حوله ، وأما الوجود الكلى فيتمثل فى علاقته بالوجود كله . ولذلك فقد ارتد الى حالة الطفولة التى ترتبط كل الارتباط بالأم .

فالطفل عند المازنى يمثل اذن تجربة معارضة تماما لتجربة الطفل الاسطورى . فالطفل الاسطورى ينتزع نفسه من سلطة الأب أولا ثم من ارتباطه القوى بأمه ثانيا . ويوضح ذلك أنه يولد يتيم الأب أو الأبوين . أما هنا فالطفل متعلق بأمه لانه فشل فى تحقيق ذاته المستقلة . ولهذا فقد انقلبت الزوجة اما أو بالأحرى اصبحت شخصية مزدوجة تحمل معنى الامومة والزوجية ، ذلك لأن الحلم يمزج تجارب اللاشعور بالحقيقة اليومية ، فالمرأة الزوجة تكشف عن ارتباطاته بالحياة اليومية ، وأما المرأة الأم فهى تعبير لا شعورى عن حاجته الملحة الى الأمومة لأنه فشل فى تحقيق حياته الجديدة المستقلة ، ولهذا فقد جن جنون الطفل حينما رأى العم يتقرب الى الأم « ويرغبها فى الزواج بعد أن قضت سبع سنوات كاملة فى الترمل » . وكانت النتيجة أن فكر الطفل فى الانتقام من العم .

وهكذا تعقدت حياة الطفل ، أو لنقل حياة رجل تحول مشكلاته الداخلية دون التحرك نحو الاستقلال النفسى . وقد صورت القصة تلك العقبات النفسية فى الحقيقة أروع التصوير . فقد تكون شجرة يحاول أن يهبط عليها ، ولايصل منها الى الارض الا بعد جهد شاق . وقد تكون قطا يرشقه فى الظلام بنظرة نافذة . وقد تكون ماردا يسد أمامه الطريق فى الظلام الحالك ، وكأنه يقول له : ليس لك مكان فى دولة الظلام لأن الانسان الحمى لابد أن يخرج الى عالم النور ليقتبس فيه حياة مكتملة .

وهكذا تلاحقت العقبة تلو الاخرى ، حتى وقع الطفل فى أسر عجوز ساحرة تسخره لخدمتها ، دفعته لأن يقضى حياته بين صعود وهبوط .

ثم استيقظ المازنى من حلمه . وذهب بعد ذلك مع زوجه الى الشيخة صباح ، تلك التى تمثل القوة الخيرة فى حياة عجت بالعواصف . وربما رأى فى الشيخة صباح بديلا لأمه الطيبة. ثم قدم للشيخة صباح ساعة أمه وقال لها : « خذى هذه الساعة انها ساعة أمى . وكنت أعتز بها وأضن . فتطلق وجهها وتهلل . فقد كانت تعرف عظم محبتى لأمى » ومعنى هذا أنه شاء أن يسلم الزمن الماضى الذى قضاه مع أمه الى تلك القوة الخيرة ، استعدادا لخوض معركة جديدة ينسلخ فيها من عبء الماضى . «ووضعت (أى الشيخة صباح) الساعة هناك قريبا من قلبها . ثم تناولت رأسه بين يديها ، وتحركت شفتاها بدعاء لم يسمعه . »

وهكذا نرى كيف أن رمز الطفل يعد البؤرة التى التفت حولها الصور المتنوعة والحوادث المروعة . ولسنا ندعى بذلك أننا توصلنا الى التفسير السليم للقصة ، ان هى الا محاولة لتقييم الرمز ، والاستفادة منه فى شرح الاعمال الأدبية العظيمة .

ولكن مما لا شك فيه أن المؤلف وفق الى توجيه النص صوب التفسير المعنوى والنفسى معا فقد عاش مع أدب المازنى تجربة ناقد ذى بصيرة ووعى بقيمة النص الادبى .

د . نبيله ابراهيم

الفن و الأدب

١

الفن –في المفهوم العام– ظاهرة انسانية يمكن تقييمها ، ولكننا عندما نتعرض لطبيعته نتصور أنه مدرك ميتافيزيقي لا يقدر على تحديد أبعاده سوى الفلاسفة من أمثال أفلاطون وأرسطو وكانت وسوريو ٠ وفي هذه الحال لا تستطيع بسهولة ، بل لا نستطيع مطلقا في بعض الاحيان أن نصل الى تحديد واحد له أو حتى تحديدات متقاربة ٠

وبين اعتبارنا الفن محاكاة أفعال على قاعدة جمالية هي العظم والنظام كما يذهب أرسطو ، وحدسا غنائيا ينبغي أن نتقبله بتسامح وفي ضوء نظرة ساذجة فردية على ما قرر بنديتو كروتشه ، وكائنا عضويا له صفات لابد من توافرها فيه حتى يبلغ حد الجمال الذي يمتع حواسنا كما يقول هربرت ريد ٠٠ أصبحت قضية التعبير الفني وأدواته ومجالاته من القضايا التي لا يمكن البت فيها ، واكتفى بتقديم اقتراحات قامت على مبدأي الشكل والابداع ٠ المبدأ الاول وظيفة من وظائف الادراك ، وهو لذلك مرتبط بالعالم العضوي من ناحية ، وبالجانب الموضوعي لجميع الاعمال الفنية من ناحية أخرى ٠ والمبدأ الثاني وظيفة من وظائف التخيل ، فهو يهتم بالعقل من حيث انه قوة قادرة على خلق الرموز والاخيلة والاساطير ٠

لكن من المؤكد اننا يمكن برصد عمليات التفاعل بين هذين النوعين من النشاط العقلي من الادراك والابتكار – أن نتبين حقيقة أساسية قد لا يختلف عليها الا قليلا ٠ وهي أنه اذا كان للفن جوانب بيولوجية واجتماعية لايمكن التقليل من أهميتها، فأكثر منها أهمية الخبرة الجمالية ٠ وعلى الرغم من اعتراض واحد كسوريو على استخدام « قيمة الجمال » في مبحث الفن – وهو موضوعي – فانه يرى أن الفن بعامة لا يعدو أن يكون خلق شيء ما، وهذا وحده يضطره بالضرورة الى اصطناع الجمال بالرغم من وجوده دائما حتى خارج حدود الاعمال الفنية ٠

ولقد فطن هربرت ريد الى ذلك فقرر أن الفن

بقلم
الدكتور
أحمد
كمال
زكي

كالحياة ضرورة وعمل وغاية ، وقد تكون للحياة صفاتها الجمالية فى منابعها الجوهرية والخفية — لانها ناتجة عن تجسيد الطاقة فى شكل مادى وجميل — الا أن الفن يبرز شاء الفنان أو لم يشأ هذه الظاهرة ، ولهذا يقاس بما هو موجود فى الكون نفسه .. فى التركيب المنظم لذرات بلورة ماسية مثلا ، أو فى خلية من خلايا النحل ، وهكذا !

لكن ليس معنى ذلك اطلاقا أننا اذا نسقنا الكون عقليا أى صنفناه نظفر بمثل ما نظفر به فى تصنيفات الفن ، وانما معناه اننا نستطيع داخل التصنيف الفنى أن نحس — بدرجة أكبر — العلاقة الازلية بين الفن والطبيعة . وان مجرد التأمل فى أعمال بيتهوفن الموسيقية ، وفى نتاج لا مارتين الشعرى والنثرى ، وفى منحوتات فيدياس الاغريقية القديمة تسلمنا الى هذه المسلمة .

ويبدو من الضرورى فى كثير من الاحيان معرفة ضروب الفن لتحديد الكيفية التى يرتبط كل ضرب منها بالطبيعة عن طريق اللون مثلا أو الخطوط أو الايقاع الموسيقى أو عن طريق كل تلك وغيرها . وفى هذه الحال تعيننا القسمة الثنائية الشائقة وهى أن هناك فنونا قولية ، وفنونا تشكيلية . والعلاقة التى تربط بين النوعين ترجع الى عوامل الجذب والتنافر بين الالفاظ والصور ، على أساس أن الكلمات اشارات اصطلاحية تدل على الاشياء المجسمة أو على المفاهيم الفكرية . وفى هذا الضوء قدم لنا لويس هورتيك Louis hortieq كتابه الفن والادب L'art et la litterature محاولا فيه أن يبين ما بين التعبير الادبى والتشكيل الفنى من علائق تلعب الطبيعة فيها دورا لايمكن التهوين من شأنه . وبطبيعة الحال يبدو من استخدام كلمة « الفن » هنا أنها محددة بضروب الفنون التشكيلية .

ولويس هورتيك من رعيل هربرت ريد ، لكنه ينتمى الى المدرسة الفرنسية التى تحاول أن تكفل للفن حدودا يظل فى داخلها تعبيرا وجدانيا عن تجارب انسانية محددة . وهو عضو تجمع الفنون الجميلة بباريس ، وأحد القلة البارزة فى مجالات التعبيرات الفنية فى شتى أشكالها وأنواعها . لكنه يهتم اهتماما خاصا بالشعر — ويكاد يكون حديثه عن الادب فى كتابه مقصورا على الشعر — ويراه أسمى ضروب الفن قاطبة ، وهو يلتقى مع غيره من الفنون كالموسيقى والرقص والنحت فى الطور الاسطورى من حياة الشعوب .

ومن هنا كان كتابه الذى بين أيدينا — الفن والادب — من أحسن الكتب التى تعالج طبيعة الفنون وتاريخها . واذا كان ينال منه اهتمامه الخاص بكل ما هو فرنسى ، فقد كان الموضوع يضطره الى أن يستشرف البعيد فيهجر بلده ويقف عند المعالم الانسانية العظيمة .

٢

بدأ هورتيك مناقشاته ببحث مسهب عن لغة الفن الاولى ، فاذا هي الكلمات ودلالاتهـــا على الاحساسات المختلفة • وحدد قدرتها على التعبير عن الاشكال والالوان ، في الوقت الذى يمكن أن توضح المفاهيم الفكرية متصلة بالحياة الواعيـــة اتصالات تندمج فيها تقريبا بحيث لا نكاد نعقل صورة من الصور أو فكرة من الافكار دون أن نسميها •

ومن هنا يجب أن نسلم بأن المصور أو النحات عندما يتخيل الخاطرة التى يريد تجسيدها لايقدر عادة على هذا التخيل الا بعد أن يعبر عنها بالكلمات والنتيجة الطبيعية من ثم هى أن النحت والتصوير ونحوهما تعبير تشكيلى عن فكرة أدبية ، وان يكن من المقرر أن لا نعتقد دائما ان الفنون التشكيلية تستمد الهامها من الادب فى كل وقت ، فاليـــوم – وأحيانا أمس – يسبق التصوير الشعر تماما كما سبقت لوحات « واتو » التى تمثل حلقـات الغزل مسرحيات « ماريفو » الشهيرة بمشـاهد الدعابة ومراودة الحسان • ولقد تقدمت لوحات « برودون » التى تصور الليالى المقمرة ولوحات « جوزيف فيرنيه » التى تعرض أمواج البحر ، صفحات « شاتوبريان » التى تصف العـــاصفة والليل • وان التيار الرومانسى الذى اســـتلهم القرون الوسطى وتغنى بالمشاعر الشخصية – وقد أصبح اليوم بمقاييسنا المعاصرة تقليدا أو مرحلة غابرة – أنتج فرائده فى تصاوير « دى لاكروا » قبل مسرحيات « هوجو » وملحمته المشـــهورة « اسطورة العصور » •

وبصفة عامة يمكن ان نقول ان اصحاب المدرسة الانطباعية فى التصوير ارشدوا كبار الأدباء – بخاصة الروائيين منهن – الى مزايا الصور ذات الألوان الكثيرة المعقدة والى مزايا اللغة التى تدع جانبا معظم الألوان الباردة ، وكان طبيعيا ان تلحق المدارس الأدبية – التى تستهدف بعث الواقع – بفن التصوير الذى استهدف ذلك الهدف نفسه •

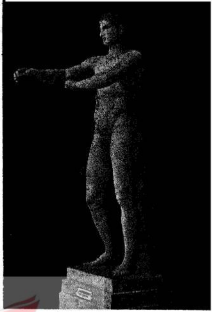
ومع ذلك فان الادب يظل أقرب الفنـــون الى تفهم الافكار ، فهو يتوسل بالاشارات الاصطلاحية – والكلمة اصطلاح – حتى يتصـــدى الى جميع مجالات الواقع لاننا نلم بجميع ما يتصل بساحة شعورنا المرتبط بالحياة بالكلمات •

وعلى هذا النحو يمضى هورتيك لنتبين معه ان كلا من التشكيل والتعبير الادبى ! – وبخاصـــة الشعر – سند للآخر ، وعلى ذلك يجب أن يتبادل التشكيل والادب اكتشافاتهما على أســـاس ان الاحساس بأشكال الحيـــاة مصدر التشكيل وأن الفنان لا يستطيع أن يقتبس من الادب الا بعد أن يتكون التعبير التشكيلى ويتفهمه بدقة بالغة •

ويلح هـــورتيك على هـــذه النقطة واذا نحن نكتشف معه ان التشكيل والأدب – برغم كل ما يفصل بينهمـــا لاختـــلاف الادوات أو اللغـــة الفنية – يلتقيـــان عند نقطة وحيدة هى معرفة الانسان • والمجال على أى حال كبير لبيان كيف أن هذين النوعين من النشاط الانسانى يمثلان استقصاء أوليا للحقيقة البشرية ، أشبه بالمقدمة التى ترهص للتحليل العلمى • غير أن المؤكد هو أن الانسان يدرك ذاته عادة فى الأوصاف الأدبية والصور التشكيلية ، بل انه يطلع بهذه الوساطة المزدوجة على التجـاوب بين واقعيـــة المـــادى والمعنوى • وان العصور التى أمعن فيها الأدب فى التحليل النفسى ورصد الصور الفنية الحية، أصابت على المستوى الفنى نفسه نتاجـــا غزيرا وعظيما من الرسوم أو النقوش التى تثبت أوجه الشبه •

ان التشـــكيل تعبير دقيق مادته فى الأدب – على ما نرى فى الملاحم التى كتبها هوميروس وعلى ما نرى فى الكتاب المقدس ، ولكن الشعـــر – أو قـــل الأدب كله – يتلقى مـــادته من التشكيل ، وغالبا ما تكون ابتكاراته منطلقـــا للازدهـــار الأدبى • ففى الحضـــارة الاغريقية والحضارة الرومانية – ولم يكن فيهما احساس بالتاريخ فدخلتهما الاسطورة – يبدو ان النحت تقدم النزعة الانسانية عند الشعراء والفلاسفة •

الا أنه مهما تكن الهيمنة – منسوبة للتشكيل أو للادب – فمما لا شك فيه أن التشكيل ضرب



من « اللغة » لأنه يصل الفنان الذى يبدع صورة ما بالفنان الذى يتناولها بالتأويل .

ولكن الفنون التشكيلية ـ على عكس الكلمات التى هى اشارات اصطلاحية خالصة ـ تنصاع لقوانين آسرة ولا رادة طبيعة المواد المستخدمة . فالمهندسون البناءون وهم فنانون بالضرورة يخضعون لامكانات الحجر وكذلك للوسائل الأخرى التى تدخل فى نطاق الثقالة والمسطرة والفرجار . ويعرف المصورون والنحاتون بالاضافة الى ذلك متطلبات « النموذج » وصدق التعبير ، فهم فيما يبدو لا يتصرفون ـ كما يفعل الأدب ـ بألفاظ يفهمها الناس كل الفهم وانما عليهم أن يبدعوا لغة خاصة يعرفها الناس وتتحصل من توافق مشاعرهم ومهاراتهم فى التعامل بالألوان والأحجار ، فتؤثر التقنية من هنا فى الأسلوب على نحو متبادل .

ومع ذلك فان التشكيل كالأدب يستلهم الطبيعة وبخاصة الوجه الانسانى . وان يكن أكثر انقيادا لمقتضيات النموذج لا سيما اذا كان منتميا للكلاسيكية ـ وهذه تدخل فيها الرومانسية ونحوها كما قدمنا ـ التى تحتاج الى مزيد من الترابط بالطبيعة ، والفن فى مبدئه محاكاة لظواهر الكون كما نعرف .

وحينما يبلغ الفنان نضجه الكامل يجد فى الحجر والكلمات أدوات طيعة أو لغة مفهومة ، فيجسد أحدهما « الأوهام » الشعرية ويصف الآخر ـ بالألفاظ أيضا ـ أشكال النحت والتصوير ، وحينئذ ينفذ كل منهما فى الآخر ويتبادل العطاء معه .

لكن يظل من البديهي ـ بسبب طبيعة التقنيات فى رأى هورتيك ـ أن فى امكان فنان الكلمات نقل صورة الحجر واللون بسهولة ، لأن الألفاظ قادرة أكثر من غيرها على أن تلم بكل شيء فتتحدث عن التماثيل حديثها عن غيرها ، ولايجد الكاتب صعوبة الا فى العثور على التعبيرات اللفظية التى توحى بالصور ايحاء لا يعدو أن يكون مضمرا وتكفيه صفة واحدة بشرط أن يحسن اختيارها .

ويحتاج الانتقال من وصف أدبى الى عمل من أعمال النحت أو التصوير جهدا معينا لا يقل صعوبة ودقة عن العمل اللازم للخلق الفنى . اذ لا تلقى الكلمة الا فكرة مجردة ، وعلى الرسم واللون مهمة نفخ الحياة فيها ، بحيث تبدو مقنعة اقناع الأدب الذى يستعين بالمنطق المعروف .

ومن هنا وفى ضوء هذا الترابط الخطير الذى يستمد بقاءه من طبيعة الفنون تستطيع أن تقارب بين هوميروس والفن الاغريقى كله ، وبين بندار الشاعر وبوليكليف النحات ، وبين سوفوكليس الدرامى وفيدياس المثال ، وبين مسرحيات يوريبيدس وتماثيل براكسيتيل ، وبين الأدب الاسكندرى ـ شعرا كان أو غير شعر ـ وفنه التشكيلى .

كذلك تقارب بين أعمال « راسين » ولوحات « بوسان » وبين « واتو » المصور و « ماريفو » الكاتب ٠

بل تبقى على حالها بواعث المقارنة على مر العصور برغم اختلاف المدارس الفنية ، وفى هذه الحال يجب على كل دارس أن يسأل عما قدمته كل تقنية – سواء تقنية الكلام وتقنية اللون والشكل – ليحدد نقطة الانطلاق فى التعبير وليعرف وسيلته التى هى أحق من غيرها فى اظهار ما تصوره الفنان تماما :

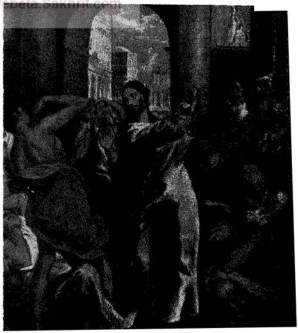
من هذا كله نرى أن كل فنان تشكيلي ملزم بالاطلاع على الآثار الأدبية ، واذا نحن فى ذلك الخضم الأدبى عما أثر فى التشكيليين لم نجد أجدى من قصائد هوميروس والأناجيل كما يقول هورتيك ، فهذه قادرة قدرة عجيبة على أن تدلى بشهادتها حول العلاقات التى تصل الشعر بالتشكيل ، وقديما أثر بيت شعرى واحد من نظم هوميروس فى فيدياس الاغريقى فأبدع تمثال زيوس العظيم !

فأما الالياذة – التى هى سرد وخطب مباشرة والقصة فيها سريعة جارفة – تفسح المجال دائما لابراز الأفكار وأوصاف المواقع والأشخاص ، وتبدو تعبيراتها تصويرية على الأقل بسبب الفعل نفسه الذى ترصده، ولكنها تحصل بتعديد الصور البرونزية والقصديرية على درع واحد كأخيل مثلا ، كما تعنى بخلط التصوير بالواقع ٠ وكل هذا يخلق شعورا بالحياة يتكامل فى ذهننا بلوحات وأشخاص وبعوالم من الرؤى والنماذج تبهر كل فنان تشكيلي ، ولهذا ينبغى ألا نعجب حين تفيد هذه الملحمة – ومعها الأوديسا – المحدثين ٠ واذا نحن استثنينا المسرح القديم الذى اكتسى فيه الممثلون الأقدمون بالأوشحة والأزر الغريبة وجدنا الفن الكلاسيكى لا يتردد مطلقا فى أن يجمع بمستوى واحد من التقديس والتقدير الشعر الهوميرى والنحت اليونانى ، وبفضل هذا النحت استردت شخصيات أخيل وأندر وماك – بنظر المحدثين – الحياة والجمال ٠

وأما الأناجيل فقد قدمت بعد قصائد هوميروس شتى موضوعات تشكيلية برغم خلو نصوصها من الوصف ٠ فعلى الرغم من أننا لا نعثر على اشارة صريحة الى وجه أوزى أو مكان فى الروايات الانجيلية الأربعة التى تتحدث عن دعوة المسيح وعذابه ، فان التشكيليين عبوا منها عبا ووجدت من ثم صور الفن التشكيلى التى تمد سيرة المسيح بأبعاد هائلة ، وكادت الانسانية تضيع – أو تظل مختفية فى الكتاب المقدس – لولا أن أبرزها المصورون والنحاتون٠

وأشهر ما أوحى من نصوص الأناجيل وجد معاصرا لكتاباتها الأولى وتحمل طابعها الرمزى ، نرى ذلك فى الايقونات وفى نقوش التوابيت وفيما ظهر به « الحواريون » وهم يرتدون الملابس الرومانية ، وما ظهر به المسيح نفسه الشاب الأمرد ذو الشعر القصير الذى يشبه فتيان روما ٠ وقس على ذلك الرموز الخطية للسمكة والحمامة والسفينة والمرساة ، فكلها اشارات واضحة الى قصص الأناجيل ٠

وفى فجر المسيحية – سواء فى النصوص أو



في الصـــور ـ كانت الفكرة الانجيليـة تلك « البشرى » التى أتى بها يسوع لا تزال تتردد فى الأحاديث الغيبية حـاملة معنى أسرع تأثيرا من النثر التحليلى ، وذلك قبل أن يتعهدهـا الفن الواقعى .

ولكن لم يلبث التصـويـر البيزنطى الذى نشأ فى القرن السادس الميلادى أنه أرسى قواعد التشكيل على نحو ما ، ومنذ ذاك جاءت الصـور بطابع مرئى وتصويرى وان يكن جهل واقعية النحت .

الخلاصة أن التاريخ يبين كيف نشأت الفنون جميعا وكيف كانت تتعاون على البقاء لتحكى عن الانسانية خلال العصور التى تجتازها زاخرة بجميع المشاعر التى تصبها فيها الأجيال . لكن يجب أن نضع فى اعتبارنا أن الوسيلة الحسنة لقياس أثر الفنون التشكيلية فى مخيلة الشعراء ـ بعد المرحلة الميتافيزيقية التى كان للكلمة اللغوية القدح المعلى فى التعبير الأدبى ـ هى أن نعرف كيف تظهر الآلهة فى الملحمتين اليونانية والرومانية عند هوميروس وفرجيل .

لكن ماذا اليوم ؟

يجيب هورتيك من خلال عرضه للواقعية والانطباعية ، واقفا وقفة متأنية عند نثر « ستندال » قبل ظهور الواقعية ، وعند تصور « بلزاك » الذى لم يكن كاتبا بصريا بقدر ماكان خالقا للصور ، وعند « فلوبير » الذى اعتاد أن يدرج فى الادب واقعية التصوير المعاصر .

ولقد لوحظ أن التشكيل سبق الشـعر فى مجال التطور ، وخضع الأدب بصفة عامة للتشكيل خضوعا ألزمه بأن يضم اليه الألوان ويتخلى شيئا فشيئا عن وظائف اللغة المنطقية والاستدلالية ليكتسب قيما تصويرية ، ولكن من المؤكد أن الرومانسيين هم الذين توسعوا كثيرا فى نقل « الصور » الى الشعر وفى الايحاء الى القارىء بالألوان عن طريق النشيد قبل استخلاص موضوع يحملنا على التأمل والتفكير . وبصفة عامة يؤكد هورتيك ـ من خلال النماذج الفرنسية ـ أن الرومانسية فى كل الأزمنة



ازدردوا التعبير عن الأفكار ولجأوا الى الايحـاء الحسى التأثير اللونى والجرسى العـاطفى مستلهمين التصوير أو النحت حتى ان بعض الشعراء مثل « جوته » حذا حذو المصورين فى وصف الطبيعة .

وفى نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين توثقت عرى الروابط بين الفنون الأدبية والفنون التشكيلية بحيث لم يعد يعرف تماما من الآخذ ومن المعطى ، ولهذا كان لا بد من دمج الألوان الأدبية والتشكيلية فى الواقعية ، علما بأن هذه الواقعية ارتبطت بالتصوير أولا بفضل روائع « جيريكو » و « كوربيه » وأن ظهور الواقعية التصويرية حررت التشكيل من ربقة الأدب ثم جرت الأدب الى ميدانه .

وعلى يد أمثال « فيرلين » و « بودلير » و « مالارميه » تم الدمج الفنى ، ولكن ظهور السيريالية عدل بالأدب عن هذه الطريق الرشيدة ـ ومما لا شك فيه أن التصوير السيريالى نفسه سبق الى هذا العدول ـ واليوم يبدو أن العلاقة بين الشعر وما يجاوره فى الفنون كالموسيقى والتصوير قد جرفته خارج حدوده حتى استقر فى مقام غريب عنه مغفلا خصائصه التى انفرد بها ومأخوذا بسحر الموسيقى وانسجام الألوان فقط ـ مقتربا بذلك من التجريد ـ والغريب أن المصورين أنفسهم بل كذلك الموسيقيين رضوا بمعونة الأدب الذى راح يهتم بشرح التشكيل وتقويمه .

٣

هذه تقريبا أفكار هورتيك كما بسطها في كتابه « الفن والأدب » ولكن يبقى حديثه عن الأساطير باعتبار أنها رصيد انساني خدم العلم عن طريق الفن ، أي أننا يمكن أن نجعل « الميثولوجيا » الفترة الدينية لعلمي الحيوان وطبقات الأرض فضلا عن التاريخ – والملحمة الشعرية عادة الصيغة الأولى للتاريخ – حتى حق لاسترابون أن يقول عن هوميروس انه في حديثه عن شعب ما أو منطقة من المناطق لم يختلق ولم يتخرص •

وجعلنا الأساطير فنا يقضي بان نخرج الأساطير الطقوسية التي يهتم بها الانثروبولوجيون من حسابنا ، فهذه عقيدة تلعب مع السحر دورا اجتماعيا لا حاجة بالأدب الى شرحه وان يكن لا بأس باستخدامه • كذلك ينبغي أن نقر بأن « مادتها » الأولى لم تخرج عن الأخبار التي اعتاد الناس أن يتناقلوها شفاها ، حتى لتبدو رحلة « أوليس » بطل أوديسا هوميروس نظما شعريا لأحداث معينة ومشاهدات حقيقية لعب فيها الزمن بالتحريف والتزيد دورا كبيرا • وفي الوقت نفسه تكون ثمة آثار صامتة ومشوهة وديار دارسة ومناظر طبيعية غريبة ، تقوم بما يقوم به الناس من رواية العجائب التي ينظمها الشاعر ، فتنشأ الأساطير حول هذه « الآثار » التي أمست أثرا بعد عين ، أو التي « لابد » أن تكون – اذا كانت جبلا مثلا – حطام هندسة غريبة ربما تسهل على علماء الجيولوجيا أو الفلك تبريرها على نحو يخالف التبرير الأسطوري لها •

وفي هذه الحدود يعقد هوريتك ثاني فصل في الكتاب بعنوان « علم الآثار والملحمة » فيقدم أجمل صفحات كتابه وأوضحها وأخطرها في الوقت نفسه ، بخاصة اذا علمنا أن الدراسات الأسطورية لا تزال تحبو عندنا – كباحثين أو دارسين – مع أنها كانت معينا لا ينضب أمام جبل الشعراء الرومانسيين قبل أن يغترف منها فنانو اليوم •

ونحن اذا عرضنا للعالم القديم من خلال شواهده الشعرية والتشكيلية منذ هوميروس اليوناني حتى فيرجيل الروماني ، ومن خلال ذلك الموروث الكبير من التماثيل الرخامية التي تزدحم بها متاحفنا الحديثة ، وذهبنا نطوف في البحر المتوسط –وقد كان مرتعا للخيال الوثني– لما وجدنا موقعا من المواقع الا وهو مرتبط بمأساة خرافية جميلة ولما وجدنا ظاهرة طبيعية الا ولعبت فيها الأساطير أبدع ما يلعبه الفن في تفسير الكون •

والأساطير الاغريقية بوجه عام مناظر تحولت الى تماثيل • فقد توهم الخيال في الصخر والنبات والبحر والبحيرة عواطف وارادات خفية، ونسج الشعر على لحمة هذه المعتقدات بعض الاخبار الغرامية وبعض المعارك الكبيرة مازجا الخوارق بالواقع •

وملحمة فيرجيل « الانيادة » هي في الواقع ملحمة قومية توخى فيها الشاعر أن يعود الى أصول روما عن عراقة الشعب الروماني صاحب السيادة في عصره ، وكان علم الآثار هو الذي أطلق لخياله العنان ، وبدت الملحمة بين يديه أشبه برحلة علمية في أطلال مشروحة •

ويضرب هورتيك لذلك مثلا بمقابلة انياس البطل الطروادي مع ايفاندر عاهل مقاطعة الأفانتان على نهر التيبر حيث كان الملك يقدم مع أتباعه القرابين السنوية للاله المنتصر هرقل• ان ثمة كهفا غائرا والتواءة عظيمة في النهر ، ويقول الملك لانياس ان مكان الكهف كان صخرة اجتثها هرقل وألقى بها الى النهر فانكمش هذا مذعورا ، وكان يقصد بهذه الصخرة كاكوس الوحش الذي سرق ثيرانه • وهناك أعد مذبح الاله البطل في معبد مكسيم ليبقى دائما أعظم المعابد ، وقد بقي فعلا ، لكن بعد أصبح على أيام فيرجيل سوقا لبيع الثيران • والعلاقة كما نرى واضحة بين الثيران التي سرقت حيث دارت معركة هرقل وكاكوس ، وبين الثيران التي أصبحت تعرض للبيع أخيرا •

ان فيرجيل فيما يبدو قصد الى أن يستبدل بالصورة المعاصرة له – وهي صورة موحشة وغريبة – صورة تحمل ذكرى معينة • وبرز

القصد نفسه عندما صحب انياس بعد ذلك الى عـدة أماكن فى تلال الأفانتان والبالاتان والكابيتول ومقاطعة اللاتيوم الذى اختبأ فيها « ساتورن » ليكشف له عن روما القديمة جدا فى صورة شاعرية دافئة ، معللا ومفسرا كأن يقول له : ان فى الكابيتول الهـا هو جوبيتر العظيم ، ولفظة اللاتيوم مشتقة من الفعل اللاتينى اختبأ ! .

من أجل ذلك لم يكن كثيرا على الدارسين أن يصنعوا من الانيادة تاريخا ويستشفوا من صخورها ومغاراتها وأنهارها ماضيا مجيدا كان قائما بالفعل ثم اندثر مخلفا آثاره الموحشة .

وثمة مثل آخر ينتزعه هورتيك انتزاعا من مقاطعة بريتانى الفرنسية بعد استشهاده بسفرى التكوين والخروج على أن الأساطير تصوير مستعار للكون ، وعلى أنها تكشف عن العلاقة المتينة التى تربط الحياة الدينية — ذات الصلة الوثيقة بالشعر أو بالخيال الأدبى — بهذا التقديس الفطرى الذى يخص به كل انسان جمال الطبيعة ، وتلك فى الغالب وسيلة نتعرف بها الى أنفسنا لأننا نعجب بها طوعا اعجابنا بعمل فنى .

لقد اقتصر الفن الانسانى قديما فيما يبدو — كما هى الحال فى الغالب — على مسايرة توجيهات الطبيعة . وكان مقدرا لجزيرة القديس ميخائيل ولتلال « بوى » أن تكون مقرا للآلهة الأسطورية ، وفى بلدة « فاويه » صخرة معلقة ومتصلة بسفح جبل وعر اتصالا معجزا فأقيم هناك معبد قيل انه مكان العمالقة — التيتان — الذين كوموا جبل « بيليون » فوق أوسا ليتسلقوا الأوليمب . وفى أراضى « كرناك » و « كيبرون » و « ولوكمارياكر » يسيل فيض من التأملات داخل من يريد أن يستقصى الأسباب التى تدفع الطبيعة الجميلة أو الغريبة الى تغذية الايمان والتفكير على نحو مستمر ، ولم تكن سلاسل « مينيك » الهائلة التى نسقت بطريقة هندسية — وقد عملت وحدها فيها عملها — من الضآلة بحيث يسكت عنها القوم فاشتركت الأساطير فى نسج عدة حكايات ملأ بها علماء الفلوكلور مجموعات كاملة تصور أو تضم «أناشيد الذعر » أمام أحد أسرار الغيب . وقد ارتبطت واحدة من هذه الأساطير بالديانة المحلية وبتاريخ القديس « كورنيلى » اذ حط عندها بعد أن كان يتعقبه جنود وثنيون تحولوا الى هذه « النصب » فى اللحظة التى أوشكوا فيها أن يمسكوا به ، وبذلك دعوت صخور كرناك بجنود القديس كورنيلى الأجلاف !

ان هذا « الازدهار » التشكيلى كسب للشعر الذى يعنى بالأساطير ، وان يكن يد فنان لم تمتد اليه فى أغلب الأحيان ، وان امتدت فعلى نحو محدود جدا كأن يرسم صليب أو نحوه فوقها .

٤

وبعد فهذه هى الخطوط العريضة لكتاب لويس هورتيك ،وهى تكشف برغم العجلة فى تقديمها عن مجهود رائع خليق بأن يتدارس وتثار حوله القضايا الفنية المختلفة . واذا كانت الترجمة للكتاب — وقد قام بها الدكتور بدر الدين قاسم الرفاعى — لم تحل من هنات بعضها الى العجز عن فهم فكرة المؤلف وبعضها راجع الى أخطاء لغوية ونحوية وأكثرها راجع الى الترقيم — وهذا مهم جدا فى عملية التوصيل — فانها تسجل لمحات ذكية وبارعة ، فضلا عن أنها لم تخل من شاعرية تتفق وطبيعة الكتاب بخاصة فى فصله الثانى .

ولكن يؤخذ على المترجم شيئان : أولهما عدم تقديم المؤلف بترجمة يسيرة عن حياته الشخصية وحياته العلمية ليعرفه القارىء ، وثانيهما عدم وضع كتبه من الاصطلاحات أو كلها بصورتها الفرنسية مع أنه اهتم باثبات « الأعلام »وأسماء المعالم بالحروف اللاتينية اثباتها بالعربية .

وكنا نرجو بعد هذا أن يتولى المراجع الدكتور عمر شخاشيرو أن يقدم الكتاب بكلمة من عنده — ما دام المعرب لم يفعل — يشرح فيها هدف المؤلف وخطته فى البحث .

د . أحمد كمال زكى

التفاحة والجمجمة



بقلم : يوسف الشاروني

التفاحة والجمجمة هى الرواية الأولى لمحمد عفيفى ، وكانت قد صدرت له منذ عشرين عاما مجموعة قصصية بعنوان «أنوار» ، وفيما بينهما صدرت له مجموعة مقالات تتميز بأسلوبها الفكاهى عنوانها « ضحكات عابسة » .

والتفاحة والجمجمة تنتمى بأسلوبها الفكه الى هذا التراث البعيد فى أدبنا الفكاهى مثل الفاشوش فى حكم قراقوش لأسعد بن مماتى صاحب ديوان الجيش والمال فى عهد صلاح الدين، ونزهة النفوس ومضحك العبوس لابن سودون فى العصر المملوكى (القرن التاسع الهجرى) وهز القحوف فى قصيدة أبى شادوف ليوسف الشربينى فى عهد الاحتلال العثمانى وابن دانيال وشركائه فى التأليف لخيال الظل حتى نصل الى ابراهيم المازنى ويحى حقى ويوسف السباعى والكتابات السابقة للمؤلف نفسه .

ونحن اذا رجعنا الى المقدمة التى كتبها محمد عفيفى لمجموعته القصصية « أنوار » لعاونتنا كثيرا فى تفهم خائصه الأسلوبية فى روايته التى كتبها بعد ذلك بعشرين عاما .

فحواره أولا باللغة العامية ، بل فيه الخصائص المنطقية التى تميز شخصية عن أخرى ، فتوتو الأجنبى الوحيد فى الرواية ينطق الكلمات العربية القليلة التى تعلمها محرفة ، بينما كرشه خادم الحاج طلبه ينطق بعض الحروف مضخمة ، فالتاء ينطقها طاء ، والذال زايا ، والزى ظاء وهكذا ... مما يساعد على تجسيم هذه الشخصية الحيوانية .

أما ثانى هذه الخصائص الأسلوبية التى دعا اليها المؤلف فىمقدمته السابقة وطبقها فى روايته الحالية فهى عدم استخدامه الا ألفاظا حديثة متداولة ، وكان قد ذكر أن سبب دعوته الى ذلك هو أن يتم ادراك المعنى وما يتبعه من تداعى المعانى لدى القارىء على النحو الذى أراده الكاتب ، فلا يقصد الكاتب معنى ويفهم القارىء من اللفظ نفسه معنى آخر . كما أن الجاء القارىء الى المعاجم فكرة تتنافى فى ذاتها مع الطبيعة الالهامية للأدب .

أما ثالث الخصائص الأسلوبية فهى عدم استخدام الصفة أو التشبيه أو الاستعارة أو المجاز كغاية فى ذاتها ، فهذه الوسائل اللغوية — كما يقول الكاتب — ليست فرصة للاستعراض اللغوى انما هى وسيلة يستعين بها الكاتب على تقوية ايحائية اللغة ، ولا يصح أن يحيد عن هذا الهدف .

ولما كانت أحداث الرواية تدور بين خمسة أشخاص أرغموا على العزلة فى احدى الجزر الصغيرة المجهولة ، فانها تنتمى بموضوعها الى هذا التراث العالمى الذى يروى قصصا عن أشخاص عاشوا — لسبب أو لآخر ولمدد متفاوتة — فى جزيرة منعزلة ، وما قاموا به من مغامرات وما لاقوه من عقاب على نحو ما نجد فى قصة السندباد أو قصة حى بن يقظان فى تراثنا العربى .

وتكاد تكون جزيرتنا هنا تلخيصا لعالمنا أو صورة مصغرة منه ، ففيها التفاحة وفيها الجمجمة ، فيها الحياة وفيها الموت ، فيها الأنثى

تشمل الحب والجنس وفيها الرجال يتصارعون – بسببها – حتى الموت ، أما الراوى أحمد عبد الغفار فهو يمثل رجل الفكر ، وهو يمثل ذلك بوسيلتين : الأولى مهنته العقلية فهو مهندس سفن ، والثانية أنه لا يكتفى بأن يعايش أحداث القصة بل لديه القدرة على انتزاع نفسه منها لحظات ليصبح متفرجا ومعلقا عليها فمدونا لها ، وهى قدرة ينفرد بها من دون الشخصيات الأخرى ، ثم هناك توتو بكلماته القليلة ، وخنجره الذى يرشق به السمكة فيصطادها فى لمح البصر ، ثم يعرف كيف يوقد نارا بامكانيات أولية جدا لشى ما يصطاد ، فيطعم رفاقه على الجزيرة لونا آخر غير مجرد التفاح المتساقط من الشجرة الوحيدة بالجزيرة ، انه رجل المهارات العملية . أما الحاج طلبة بخادمه الحيوانى كرشه وبشيكاته ومسدسه فيمثل النفوذ . يبقى أخيرا من الرجال الأربعة كرشه برقبته السميكة كأنها رقبة ثور ، وجبهته الضيقة المائلة الى الوراء وبلاهته العامة فى وجهه الجلف ، انه يمثل القوة الحيوانية . أما عزيزة أو زازا فهى الانثى الخالدة ، وقد أضفى المؤلف عليها كل صفات هذه الانثى ، فهى حسناء رائعة ولا غرابة فى ذلك فهى ممثلة سينمائية شهيرة ، أما صفة الخلود فقد أضفاها عليها المؤلف حين جعلها لا تخضع لهذا الزمن الذى يعدو عدوا فى تلك الجزيرة العجيبة . فعقارب الساعة تجرى ، والنمو يتم بسرعة مذهلة ، نمو التفاح على شجرته ، ونمو الشعر والاظافر على أجسام الرجال ، أما عزيزة فلا تخضع لهذا الزمن اللاهث لا يطول شعرها ولا أظافرها وجمالها لا يتغير .

وهكذا نلاحظ فى غير كبير مشقة أن شخصيات القصة على شىء من التجريد ، لكنه تجريد لم يفسد من حيوية الشخصيات وان أضفى لونا من الرمزية على القصة .

وأحداث القصة تروى الصراع بين الرجال الاربعة الذين قذفت بهم احدى السفن الغارقة على تلك الجزيرة التى لا تزيد مساحتها عن فدان واحد ، لكنها مهيأة بوسائل الحياة الأساسية ففيها شجرة تفاح تنمو ثمارها بسرعة ما يؤكل منها ، وفيها نبع عذب بجوار جرة ، وكوخ به سرير وبعض الأوعية المنحوتة من الخشب ثم جذع لشجرة مقطوعة بجانبه أداة صخرية مسننة تشبه المنشار ستتم بها محاولة الانقاذ المقبلة من هذه الجزيرة المنعزلة .

ورمز السيطرة فى تلك الجزيرة بين الرجال الاربعة هو الاستيلاء على المرأة الوحيدة بينهم ، ولقد تتابع الاستيلاء عليها . استولى عليها أولا الحاج طلبة بمسدسه وشيكاته وحيوانية خادمه كرشه . واستكمالا لنفوذه لا تفوته الناحية الشكلية حتى لا يبدو بمظهر مغتصب النساء ، فيصر على أن يتزوج زواجا شرعيا بقراءة الفاتحة وشهادة شاهدين هما أحمد وتوتو بالرغم مما فى هذه الاجراءات من « سخرة » فى مثل هذه الظروف على حد تعبير أحمد ، لكن الرواى أو رجل الفكر عمل بدهائه على تجريد الحاج طلبة من سلاحيه ، كرشه والمسدس ، أما دفتر الشيكات فهو من باب الشكليات التى يستخدمها الحاج فى تلك الجزيرة لاستكمال أدوات نفوذه . ولقد استطاع أحمد أن يثير كرشه ضد سيده شيئا فشيئا وأن يقنعه أن سيده ليس أفضل منه حتى يستأثر من دونه بهذه الحسناء الرائعة، وفى الوقت نفسه أقنع زازا أن تسرق الرصاص من مسدس الحاج ، فلا أمان لها على نفسها طالما كان الرصاص فى مسدسه ، فلما وقعت احدى المعارك المألوفة على الجزيرة ولجأ الحاج الى مسدسه اكتشف أنه قد أفرغ مما فيه من رصاص . فانتقلت السلطة الى الأبله كرشه أقوى أفراد المجموعة جسدا . واكتشف أحمد بذلك أن وقيعته لم تكن لحسابه ولا حتى لصلحة الجماعة ، بل كانت لحساب كرشه ومصلحته ، وأن سيطرة الحاج كانت أهون من سيطرة هذا المعتوه الحيوانى .

لكن القوة الحيوانية المجردة لا تجدى فى السيطرة طويلا ، لهذا ما لبثت أن دالت دولة كرشه،ولكن على نحو أسوأ مما حدث وسيحدث لغيره . فقد لاقى مصيره النهائى خلال دفاع شرس عن استحواذه زازا .

ومن بعده تولى قاتله توتو زعامة الجماعة، فقد كان يملك خنجراله قدرة على طعن معارضيه كما كانت قدره على اصطياد السمك به ،

وبهاتين القدرتين تمت له السيطرة على الباقين والاستيلاء بدوره على زازا . وبين توتو زميل الغربة فى أول القصة وتوتو صاحب السلطان الآن مسافة نفسية شاسعة ، فهو فى أول القصة ذو قلب بكر يقتسم ما يصطاده مع زملائه فى الغربة ، لا يعرف الأنانية ولا الضغينة ، غير أن الصراع الذى شهده على شهوتى الجنس والطعام والذى اضطر الى المشاركة فيه قد غيره تماما ، فما أن سنحت له فرصة السلطة حتى بدا ما تركه هذا الصراع من بصمات على نفسيته ، فأصبح فظا أنانية ، عرف خنجره — وعلى يديه — طعم الدم والموت .

أما أحمد عبد الغفار مهندس السفن وراوية القصة ، فقد يبدو لنا لأول وهلة ضعيفا مسالما محاولا أن ينأى بنفسه عن هذا الصراع الدموى غير أننا ما نلبث أن نكتشف أنه سخر فكره الذى يتميز به عن الآخرين لخدمة عمره ، فكل ما يهمه أن يعيش أطول مدة ممكنة ولو على حساب كرامته حتى أنه يعترف لزازا أن أحدا لا يهابه . ورغم أن الجميع أدركوا فى النهاية حاجتهم اليه فأتمروا بأمره لأنه الوحيد الذى يستطيع بعلمه أن يجد طريقة لخلاصهم من هذا السجن الرهيب الا أننا ما نلبث أن نتساءل عما اذا كانت قيمة الحياة بعدد السنوات التى يعيشها صاحبها وتفادى الموت ولو على حساب أى شىء آخر ؟ اننا نعلم منذ أرسطو من قبله — أنه اذا كان التهور رذيلة فان الجبن أيضا رذيلة . بل لعلنا نجد شيئا من الاجابة على تساؤلنا حين ندرك أن الزعامة لم تنتقل الى أحمد عبد الغفار الا حين نفض عنه غبار الجبن وجرؤ على استخدام المسدس الذى جبن عن استخدامه من قبل . وبهذا وحده أصبح سيد هذه الجماعة التى لا تعرف الا القوة وسيلة للسيطرة . وشجاعة بلا عقل تؤدى بصاحبها الى الهلاك كما حدث لكرشه وعقل بلا شجاعة يؤدى بصاحبه الى حياة أشبه بالموت .

ويكتشف أخيرا أحمد عبد الغفار وسيلة الخلاص ، فلم يكن الأمر يتطلب بناء قارب فقط، بل واكتشاف طريقة للتخلص من جاذبية خاصة تتميز بها هذه الجزيرة تجذب اليها القارب ما حاول الابتعاد عنها ، وهذا ما نجع فيه أحمد . ولا يخفى الكاتب — سواء أكان المؤلف أم الراوية — أنه يكتب هذه الأحداث المضحكة الفاجعة ليعمل على وصولها الى أخوته من البشر لعلهم يتعظون بها . وحين يعلن أحمد قائلا : يا خسارة كان ممكن نعيش سعداء لكن ضيعوا الوقت فى الخناق . نحس أن هذا الرأى يمكن أن ينسحب على عالم اليوم المزدحم بالخلافات والمعارك . ويستطيع أكثر من قارىء وقارئة أن يردد مع عزيزة وأحمد حوارهما حين تقول عزيزة : طول الوقت وانت بتجرى . فيرد عليها أحمد : وانتى بتربطى جروح . فيكون الجواب : مع اننا كان ممكن نعيش مبسوطين . ان هذه الكلمات المتناثرة فى الرواية تؤكد ما سبق أن قلناه أن هذه الجزيرة يمكن أن تكون تلخيصا لعالمنا وصورة مصغرة منه . وأن الرواية بهذا الموضوع المأساوى والأسلوب الفكاهى كأنما تقدم للقارىء جمجمة فى هيئة تفاحة ، فالجمجمة هى الموضوع والتفاحة هى الأسلوب ، ولو جردنا الرواية من أسلوبها الفكاهى لأدركنا مدى الفزع الذى ينتابنا ، ولقدمت لنا الرواية نصف الحقيقة .. ليلا بلا نهار . فقد وصل العراك الى حد احراق الكوخ الوحيد الموجود بالجزيرة والذى سبق أن احتموا به من تقلبات الجو العاصفة فى تلك الجزيرة ، بل وصل الى حد اراقة دماء الرجال الأربعة دون استثناء ، بل الى مصرع أحدهم . حتى فى النهاية لانعرف ان كان الخلاص قد أتى لشخصياتنا أو لبعضهم ، لأننا نتركهم وسط قارب صغير نهبا للأمواج والأسماك ، وزازا تقول لأحمد أنها ستنجب ولدا ، فيرد عليها : اعقلى يا بنتى ، وده وقت حد يولد فيه ؟

وهكذا كما تم التوازن على مستوى الموضوع بين نضارة زازاز الأبدية من ناحية ، وخشونة الرجال الأربعة وخضوعهم لزمن جائع متعجل من ناحية أخرى ، فقد تم على مستوى الرواية بين موضوعها وأسلوبها . فالأسلوب اذن هو صمام أمن ضد انفجار الكاتب والقارىء على السواء ، فهو الذى خفف من وطأة الموضوع وقتامته وذلك عن طريق روح الفكاهة التى تشيع فيه كما يشيع الضوء فى الظلام فيهدد وحشته .

يوسف الشارونى



الاشتراكية الأفريقية

ان الاشتراكية الأفريقية ، كتعبير يمثل واقع القارة ، بعد انطلاق اغلب دولها من قيود الاستعمار ، يدفعنا الى التساؤل عما اذا كان هذا الواقع قد أصبح نظاما اشتراكيا ؟ أم لا يزال حركة فى الطريق ؟



فاذا ما اعتبرناه نظاما ـ على أساس مايعتنقه حكام هذه الدول من مبادىء اشتراكية ، تلزمهم بتطبيقها وسيادتها ـ صار لزاما علينا أن نبحث عما اذا كان مقتصرا فى وجوده على الاتجاه من أعلى الى أسفل ، واعتماده على مساندة الفئة الحاكمة دون الجماعة المحكومة ، أم أنه نظام منبث بين عامة الجماعة وخاصتها على السواء ٠٠ فتفاعل معهم وانفعلوا بمبادئه ٠٠ ومن ثم فان هذه الجماعة هى التى بلورت مبادئها ، وهى التى أنبتت من يأخذ على عاتقة مهمة تطويرهذه المبادىء الاشتراكية لظروف الجماعة وتطويعها ٠

بقلم جمال بدران

واذا ما اعتبرناه مجرد حركة فى الطريق الى التكامل الاشتراكى ٠٠ وجب علينا الالمام بظروف هذا الواقع كافة ٠٠ لنستدل منها على مدى استيعابه للانتفاضات الاشتراكية وتطبيقاتها ، ومدى المرونة فى الأخذ بها ، وما هى البوادر أو العلامات المطمئنة على سلوكه الطريق القويم اليها أما اذا اعتبرناه مجرد ردود فعل سريعة لما كانت تعانيه مجتمعات افريقيا من نظم استعمارية مستغلة أو مجرد امتدادات لتيار وافد تعلق به بعض أبناء هذه الجماعات ٠٠ فيجربونها على أمل الوصول الى أصلح الحلول للنهوض بأوطانهم ٠٠ مع مافى ذلك من تضحيات وعناء التجريب ٠

ولاجراء مثل هذا الاستقصاء ؛ يستلزم الأمر الاتفاق على مفهوم مصطلحاته ٠٠ كى يكون أداة محددة التوظيف ، واضحة الغرض ، كفيلة بتدعيم محصولاتها وتأصيل كل تطور ٠

فما هى الاشتراكية على الاطلاق ؟ وما هو العمل الاشتراكى ؟ ومن هو عضو المجتمع الاشتراكى ؟

ان محاولة الاجابة على السؤال الأول بتعريف دون الرجوع الى تاريخ الاحداث الاشتراكية وما أضافته الى مفهومها من جزئيات وتفصيلات ٠٠ يصمه بعدم الاكتمال وضيق الأفق ٠ خاصة أن هذا التاريخ قد استبعد بأحداثه أيضا صفات تخلط بينها وبين ما يقاربها من مذاهب أو مبادىء كيلا تؤدى الى اللبس وسوء الفهم ٠ فهل معنى هذا أن تعريفا جامعا مانعا للاشتراكية نتيجة الاستقراء التاريخى قد صار فى الامكان ؟

ان كلمة الاشتراكية ترجمة لمقابل افرنجى Socialism متفرع عن صفة الاجتماعى ، فهل نعرف الاشتراكية بالاجتماعية ؟!! ٠٠ أظن أنها قد تطورت الى أبعد من ذلك بكثير ٠

أم نجمع ما اتفق عليه كل من أتباع أوين وفورييه وسان سيمون ٠٠ فنقول ان الاشتراكية هى كل ما يعادى الفردية والتنافس الاقتصادى وحرية التعامل وفكرة القانون الاقتصادى الطبيعى ! فلا بد أن ينبرى المعترضون احتجاجا على استبعاد ما أضيف بعد ثورة ١٨٣٠ فى فرنسا من مناداة جراكوس بابيف منذ عام ١٧٩٦ بما يسمى حرب الطبقات أو صراعها ٠ وأقصد من ذلك أن المتابعة التاريخية لهذه الاضافات ٠٠ لن توصلنا الى تعريف أساسى ، وانما تؤدى بنا الى حصر مفتوح لما تخبئه تطورات المستقبل من زيادات ٠٠ لذلك فان الطموح الى تعريف قاطع للاشتراكية أو لأى مذهب على الاطلاق انما يهدئه واقع البشرية غير المستقر على حال ، ومن ثم يكتفى بمحاولة الغوص الى ماهية الاشتراكية وكنهها مجردا من واقع التطبيق الخاضع لاختلاف المجتمعات وظروف تجددها ٠٠ فنستطيع أن نميل مع قول بول سويزى انها « نظام اجتماعى متكامل تنعدم فيه الملكية الخاصة لوسائل الانتاج » ، أما ما يترتب على هذه الماهية من نتائج فى التطبيق ٠٠ فهى من قبيل الجزئيات التى تتبادل الضوء بينها وبين جوهر الاشتراكية ٠

فما هو العمل الاشتراكى ؟ **انه حتما ذلك الجهد المبذول – من جماعة أو فرد على السواء – الذى يستلهم جوهر الاشتراكية فى ضوء الظروف المحيطة بمجال تطبيق هذا العمل وأبعاده المتنظرة من امكان التعديل واحتمال التطور ٠٠**



نيريرى

ومقام الفرد هنا كمقام الجماعة تماما مادام قد خضع فى عمله لهـذا النظام الاجتماعى المتكامل الحالى من الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ، وجعل دليل عمله خير الجماعة بلا استغلال أو تسلط ، وبلا رغبة فى اكتنـــاز مال فردى على حســاب الصالح العام ٠

وبهذا يصبح عضو المجتمع الاشتراكى هو ذلك الانسان المؤمن بالاشـــتراكية أو يحاول تطبيق مبادئهـا ٠٠ ذلك لأن من يحاول تطبيـــق هذه المبادىء كلها أو بعضها ، فانه يقوم بعمل اشتراكى يؤدى فى النهايه الى اقامة النظام الاشــتراكى وسيادته حتما ٠

فهل يحق لنا أن نتخذ من هذه التعبيرات كاشفا فى البحث عن براعم الاشتراكية فى بســاتين أفريقيا وأدغالها ؟ ٠٠ أم يجوز أن نعثر بها على ما يجدد من مفهوماتها ويضيف اليها تجارب حارة صادقة ؟ ٠٠ ان تاريخ البحوث العلمية عامة ، والانسانية على وجه الخصوص ٠٠ يجعلنا نتادى من الأعماق ٠٠ لابد من هـــذه الأجواء الجديدة ليكتمل نمو هذه البراعم ، وتمتص أصالة الأرض التى احتضنتها ، وبعدئذ يصح لنا أن نجيب على السؤالين ٠٠ بقياس ما استحدث من نمو على ما سبق اثباته من نشأة ، وما اقتضـــاه كل ذلك من زمن ٠

وها هو ليوبولد سـنجور رئيس جمهـــورية السنغال يصر على هذا المعنى فيقول « لا يمكن أن تظل اشتراكيتنا مثل اشتراكية ماركس وانجلز التى أتقنت صياغتها منذ ما يقرب من مائة عام مضت ، طبقا للوسائل العلمية والظروف السائدة فى القرن التاسع عشر وفى أوروبا الغربية » ٠

المشكلات الأفريقية :

ومن ثم فلا يحق لنا أن نتسرع فنخلع على ما تحقق لهذه البراعم من منجزات ثوب الاشتراكية كاملا ، أو نتجنى فى تعجل الاتهام فنرميهـــا بغموض المفهوم الاشتراكى أو ضبابية المضمون فيها وانما يستضاء بملاءمة ما استحدث من تطوير ما حققه من نجـــاح وتغلب على واقع الحـال ٠٠ بمشكلاته وجمود المبادىء غير المتكافئة معها ٠

فما هى مشكلات مجتمعاتنا الأفريقية ، التى يمكن اتخاذ محاولات اصلاحهـــا شواهد على ما استنبتته من بذور مهجنة - ان صح هذا التعبير - فى الحقل الاشتراكى ؟ ٠

● اننا قد نلمس شيئا من اتفاق الظروف التى تحيط بغالبية هذه المجتمعات ، التى تخلصت فى فترات متقاربة ، ومنذ عهد ليس ببعيد ، من قبضه الاستعمار ونظمه المعتمدة أساسا على الاستغلال الرأسمالى ٠٠ ومن ثم أصبح النظام الرأسمالى فى نظر أبنـــاء هـــذه المجتمعات مرتبطـا بمساوىء الاستعمار وشروره ، لهذا فان نوعية هذه المشكلات غير متبـــاعدة ، ولا تخرج كثيرا عن محـــورين رئيسيين ٠٠ همـــا الانطلاق السريع والرؤى الاشـــتراكية ٠٠ وبين هذين المحورين تتفـاوت حدة المشكلات ومواقف الاستعداد لها ٠

● فدول حديثة العهد بالاستقلال ، تريد أن ترسخ لها قاعدة اقتصـــادية لتقيم عليهـــا كل اصلاحاتها ، وهى دول قد تكون متمتعة بالمواد الأولية التى كانت تمتصها مصانع الدول المستعمرة الرأسمالية ، وهى دول تعانى أزمة فقدان الثقة بينها وبين البيوت التجارية وشركاتها الاستعمارية وهى ان كانت موفورة المواد الأولية الا أنها تفتقد المـال السـائل الضرورى للاتفاق على مشروعات تنقصها الدربة ، ومن ثم القدرة على تلبية مطلب الانطلاق السريع ، وكذلك الأمر فيما يتعلق بنتائج منجزات التنمية ٠٠ سواء كانت وليدة تخطيط محدد المراحل أم مرتبطة بنماذج تقليدية مستجلبة من زيادة اســـتهلاك ورواج الكماليات وارتفاع

التنمية ، كذلك الأمر ازاء الأيدى العاملة.. ان كانت موفورة الأيدى رخيصة الأجور ، لـ مستوى المعيشة ، فاذا ما أضفنا الى ذلك ارتـ بعض الدول بالكتل النقدية الأوربية منذ مـ الاستعمار مثل كتلة الاسترليني ومنطقة الفر والدولار حديثا ، واذا أضفنا أيضا تباين أهد المساعدة الاقتصادية التى تقدم من كل من الاتـ السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية..فالا تستهدف بناء الصناعات الثقيلة التى تخلق النهاية الطبقة العمالية الصناعية ، والثانية تـ الى خلق مشروعات لسد الحاجات الرئيسية البضائع الاستهلاكية برأس المال الخاص .. ما أضفنا ذلك الى ما سبق من مشكلات للمسنا مدى الحاح الحاجة لقاعدة اقتصادية أفر الأرض والخام والأيدى الماهرة ، وعالمية السـ والقوى المستهلكة .. وان كان لابد لرأس ا من أن يقترض من خارج أفريقيا فى مر البداية ، .. وجب علينا أن نضيف نوعا آ من المشكلات ، تلك هى المشكلات الاجتما والسياسية .

● فحقوق الفرد وامتيازاته داخل القـ الأفريقية التقليدية هى فى المرتبة الثانية صالح المجتمع والعائلة .. لدرجة أن حـ الحرية الفردية قد تبلغ غاية الضيق اذا ما عر الفرد تماسك عائلته مترامية الأطراف أو وجو المستمر ، أو يعرض العائلات المكونة للمجـ للأخطار بما يقوم به من تصرفات وأفعال .. ذ لأن منطق هذه القرى يقوم على أساس أن حـ الفرد معتمدة أصلا على معاونة من يعيشون حـ ومن ثم فانهم بدورهم يعتبرون أن الحق لهم وضع الحدود الخاصة بحرياته كفرد .

● لكن الاهتمام بالفردية هو من السـ المميزة للمجتمعات الأوروبية الغربية .. و الأثر الذى حاول المستعمرون تدعيمه وتأصيله فكر المثقف الأفريقي .. فوجدنا صدى لفـ الصفوة الرائدة .. ومن هنا نشأت فجوة النبع الاجتماعي وبين التيار الثقافي الوافد وما محاولات التوفيق بين الحاجتين الا تأرجـ وتميعا يخلقان بدورهما مشكلة من مشاكل عـ الاستقرار .

● كذلك فان فى أفريقيا عددا من الد



سيكوتورى

يستهان به ،ومازالت جماعاته فى حاجة الى نظيم صفوفها ، وتوضيح مصالحها ومطالبها التى تجمع حولها .. ومن ثم تستطيع بها أن تفرض لى حكوماتها ما يحفظ لها كيانها وهيبتها ، يحقق لها أمنياتها ومستقبلها بالسرعة الملائمة موها الحديث .. ثم ان ادخال نظام التصنيع قد ـأ تأثيره بظهور بعض المصالح الاقتصادية لجديدة ، وخاصة فى المجتمعات النامية .. ستويات مختلفة .. مثل مصالح الادراة التوزيع وتجارة التجزئة .. الخ لكنها مصالح ترتبط نشاطها بمدى تطبيق دولها لنظام ملكيتها سائل الانتاج .. وفى محاولة تنظيم صفوف ماعات فيها وبلورة مصالحها لئلا تتعارض ضرورة ملكية الدولة للوسائل الانتاجية .. لل رؤوس المشاكل .

● وقد نشأ عن خلق دول مستقلة .. ظهور ماعات تتسم بأهمية سياسية فعالة فى حكومات ـذه الدول .. نظرا لما قامت به أدوار بطولية نى تحقق لأوطانها الاستقلال .. مثل الجماعة سكرية أو الجيش الوطنى الذى لم يعد يخضع ـامر ضباط الاستعمار ،ومثل جماعات الشباب نى لا تعترف بالتطور البطىء وتؤمن بالقفزات للاحقة للحاق بركب التقدم العالمى..ونرى أمثلة ضحة لذلك فى نيجيريا وغانا .. فأفسحت ـزاب نيجيريا وحزب غانا الطريق لزعامات

الشباب ، أما الجماعة الثالثة فى الدول الافريقية فهى السلطات الدينية أو التقليدية .. التى لا تزال تلعب دورا لا يمكن تجاهله فى السنغال وفى غرب نيجيريا وغير ذلك من مناطق أفريقيا المترامية .. ويمكن حصر فوائدها فى الحد من الاندفاع غير مأمون العواقب ، وفى الابقاء على الشخصية الافريقية وجعلها واضحة فى كل تجديد، ولا يبقى بعدئذ غير جماعة رابعة هى الأحزاب .. وهى وحدها تخلق مشكلة أمام الدول الافريقية النامية ..ذلك لأنها تعبير عن تباين المصالح الاقتصادية واختلاف المشارب الثقافية .. فهل تكفى النقابات لتحل محلها ؟ أم يجبها نظام الحزب الواحد فيمتص كل اتجاهات الأحزاب !!؟

هذه هى أهم الظروف التى تنجم عنها مشاكل مجتمعاتنا الافريقية المتطلعة الى تعويض ما فاتها من حضارات عالمية معاصرة .. ومن ثم فاننا نجد الجموع الافريقية وهى فى تصميمها على تحقيق هذه التطلعات .. تبحث عن أقصر الطرق التى تشقها اليها ..

فماذا فى كتاب الاشتراكية الافريقية من آراء .. تكشف لنا عن هذا الطريق السريع ؟..! ان القارئ لهذا الكتاب ، يحس أنه واقف على مشارف الطرق ، تتجاذبه اشارات المرور ، فيحار بين أى المسالك يخترقها .. ذلك لأن لون الاشارة يدل على لحظة العبور لا على طول المدى .. وها نحن كقراء ننظر من خلال صفحات الكتاب الى ما بعد المشارف .

● فها هو وليم فريدلند يشرح الاشتراكية الافريقية قائلا « وتختلف أيديولوجيتها اختلافا جذريا عن أيدلوجية الغرب . ففكرة الطبيعة البشرية وهى الفكرة الكامنة وراء الاشتراكية الافريقية ، ترفض فلسفة الغرب الفردية الطابع فالمجتمع شركة فى النوايا والامانى والمخاوف ، واخفاق أى فرد فى التمسك بهذه الروح الجماعية يجعل للمجتمع حق الارغام بحيث يجبر الفرد على أن يكون حرا وعلى خلاف فكرة الاغلبية التى تمثلها الديمقراطية فى الغرب ، يستخدم الاشتراكى الأفريقى لغة روسو « الارادة العامة أو ارادة الشعب » .

● وهو هو توم مبويا يؤيد بقوله « اننا منهمكون فى عملية انتقال واسعة النطاق نسعى فيها للبحث عن ذاتيات جديدة على المستوى الشخصى والوطنى والدولى .. وفى العالم اليوم يخوض ملايين من الناس نفس التجربة ، ولا يختلف أهدافهم كثيرا عن أهدافنا ، ولكننا نختلف عنهم فى التقاليد والأصل التاريخى ، كما أن وضعهم وتطلعاتهم بالنسبة للتحدى الذى يواجهونه ، يختلف عن وضعنا وتطلعاتنا ، ولذلك فاننا نقوم بدور خاص بنا ، اما أن ننجزه أو نهلك دونه » .

● أما مرجريت روبرتس فتدافع عن سلطة الحزب الواحد فى ظل نظام اشتراكى بقولها .. « ان نبذ مثل هذه الأنظمة الحكومية باعتبارها غير اشتراكية ، اتجاه سطحى يعوزه الفهم ، لأنه لا يضع فى الاعتبار الظروف التى نشأت فيها الاشتراكية الافريقية ، والرغبة الشعبية الساحقة فى تحقيق نمو اقتصادى سريع ، والافتقار الى أى دليل على امكان تحقيق هذا التقدم دون تقييد قدرة الناس على الاعتراض على التضحيات التى سوف يطلب منهم بذلها » .

● كذلك نجد جورج بادمور وهو يخطط دليلا للاشتراكية الأفريقية من داخل غانا يقول « يجب أن نخلق الصورة الخاصة بنا للاشتراكية الأفريقية والتى تتلاءم مع ظروفنا وأحوالنا وخلفيتنا التاريخية » ويواصل شرح دور الحزب الواحد فى التنمية فيقول انه لا يقتصر على أن يشرح للجماهير سياسة الحكومة وخططها ، ان مهمته هى اولا وقبل كل شىء ، تعبئة تأييد حلفائه الرئيسيين أى العمال والفلاحين والشباب والنساء العاملات ، كى يساندوا الثورة الاقتصادية التى تستهدفها ، مثلما فعل حين قاد الثورة الوطنية التى حققت الاستقلال » ثم ينادى باصرار هاتفا « ان هدفنا

هو الاستقلال الاقتصادى على أساس نمط اشتراكى، وحتى يتسنى تنفيذ مشروعنا لابد من أن يتولى القيادة أولئك الافريقيون من ذوى النظرة الاقتصادية وكان بادمور يحس بصعوبة مهمة الاستقلال الاقتصادى عن الاستقلال الوطنى الذى حققه الحزب فيتمسك بقيادة اخصائيى الاقتصاد الوطنيين .. فمعركة الحرية الاقتصادية سوف تنشب – كما يقول – بطريقة أشد براعة وأقل علانية .

الا أننا نعثر فى الكتاب الذى بين أيدينا على أضواء كاشفة ، تنير لنا الطريق الى أبعد من اشارات عبور المفترق ، لا تدعنا نتحسس أرضا ممهدة فى الظلام ، وانما تدفع بأيدينا كى تحفر أقصر طريق بين الآكام .. ومن هذه الكاشفات آراء جوليوس نيوريرى فى أساس الاشتراكية الافريقية .. يعبر عنها قائلا : « ليست هناك اشتراكية بغير عمل ، والمجتمع الذى يخفق فى توفير وسائل العمل لأفراده ، أو اذا وفرها لهم ويحول بينهم وبين الحصول على نصيب عادل من منتجات عرقهم وكدهم ، مجتمع يحتاج الى أن تصحح الاوضاع فيه . وبالمثل يخطىء الفرد الذى لا يعمل برغم كونه قادرا على العمل وأمده المجتمع بوسائل العمل . ليس لهذا الفرد الحق فى أن يتوقع شيئا من المجتمع ، اذ أنه لم يسهم بشىء للمجتمع » وبعد أن ينفى نيوريرى عن افريقيا وجود الطبقية ، يركز الاشتراكية فيها على ما يسمى بـ « أوجاما » أى نظام الاسرة بالمفهوم الاوسع الذى يشمل المجتمع .. فينصحنا قائلا .. « ان ادراكنا للأسرة التى ننتمى اليها جميعا ، يجب أن يتسع أكثر من هذا بحيث يتجاوز حدود القبيلة والمجتمع والأمة بل والقارة – لكى يضم المجتمع البشرى بأسره . وهذه هى النتيجة المنطقية المتولدة من اشتراكيتنا الصحيحة » .

● ثم نجد أن ليوبولد سنجور يكاد يهتف مناديا لمحو استغلال الانسان لزميله ، ولاشباع الحاجات الروحية التى تسمو على حاجاتنا المادية ولتقسيم العمل فى المجتمع بين الجنسين وبين الفئات المهنية الفنية .. على أساس من الدين.. لذلك يقول « لهذا السبب نرانا مضطرين الى البحث عن أسلوبنا الأصلى الخاص بنا : أسلوب أفريقى – زنجى ، لبلوغ هذه الأهداف ، مع توجيه اهتمام خاص الى عنصرين شددت عليهم الآن وهما : الديمقراطية السياسية والاقتصادية والحرية الروحية » .

وهنا نحس نحن القراء العرب بنوع من الألفة والتجاوب مع هذا النمط الاشتراكى الافريقى .. فقد نص ميثاقنا العربى – كدليل عمل اشتراكى على القيم الروحية .. دينية كانت أم معنوية وثقافية ، وجعلها دعائم تزيد الحياة الاشتراكية جمالا ومعنى ، وتدفع بالانسان الى التفانى فى الحفاظ على هذا النظام الذى يسوده العدل ويرتكز على الكفاية وترفرف عليه الرفاهية .. خصوصا اذا ماتذكرنا أن الاشتراكية تعتبر الانسان وحدة مترابطة ومتكاملة ، ومن ثم فهى تقيم وزنا للجوانب الانسانية كافة .. المادى والعقلى منها ، تماما مثل الجانب الروحى .

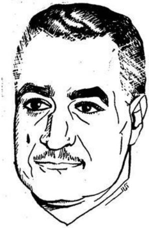
لهذا فان الدكتور راشد البراوى قد أحسن صنعا باضافته للكتاب فصلا يوضح وجهة نظر الانسان العربى فى الاشتراكية الافريقية ، ويؤكد وحدة مصير القوميتين الافريقية والعربية ، ويبددوهم الحجاب الحاجز بين الجنوب وبين الشمال الأفريقيين ، ويؤيد تشابه مجتمعاتهما فى ظروف الأحداث الماضية والحاضرة ، وتطلعات جموعها القادمة .. ومن ثم لابد من تآلف وتحالف ، بل تلاحم وتبادل التأثيرات .

فهل يحق لنا بعد هذا العرض الوجيز للآراء التى احتواها كتاب الاشتراكية الافريقية .. هل يحق لنا أن نزن كل رأى على حدة بميزان المصطلحات الاشتراكية والمشكلات السائدة التى سقناها فى مطلع هذا المقال ؟ أم نجمعها كلها على أساس الوحدة الانسانية فى المفهوم الاشتراكى وننظر من خلالها بحثا عن وحدة المصير ؟

هذا مالا تكفى للاجابة عليه اشارات العبور المضيئة ، ولا الكشافات المحدودة المدى ، وانما طبيعة العمل ونتائجه ، وسرعة التطور وحتميته هى التى تتكفل بالاجابة ، وتحدد النمط الأفريقى للاشتراكية .. وعلى الله قصد السبيل .

جمال بدران

بقلم : شوقى وهبه



فخ السويس

(كانت السويس مقبرة للغزاة ومقبرة لايدن ومقبرة لبن جوريون ومقبرة لجى موليه ومقبرة للهاشميين ومقبرة للرجعيين ·· ولم تتحطم الثورة المصرية وماتزال والحمد لله خطرا دائما على كل نوع من أنواع الاستعمار ·· والجيش لم يتحطم وهو درع للقومية العربية ·· وقناة السويس فى احسن احوالها بشهادة الدنيا كلها ·· والسد العالى تمت مراحله الاولى وتوشك مرحلته الثانية أن تتم ـ جمال عبد الناصر) ·

(لقد اختفى ايدن وموليه وبن جوريون وبقى عبد الناصر فى قوته ومبادئه وسياسته لم تتغير ـ وكالة اسوشيتدبرس) ·

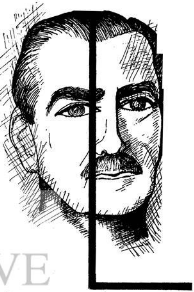
(العدوان الثلاثى على مصر كان عملية مدبرة ولم تذهب القوات البريطانية للفصل بين القوات المصرية والاسرائيلية وانما ذهبت لتنفيذ خطة غزو مشترك ـ هارولد ويلسون رئيس وزراء بريطانيا)

(كانت اسرائيل فى العدوان الثلاثى على مصر كراكب دراجة تجره عربة تصعد طريقا مرتفعا ـ موشى ديان قائد الجيش الاسرائيلى عام ١٩٥٦

حرب السويس من الموضوعات الشائقة التى لا أمل قراءتها ، بل على العكس أجدنى مقبلا بشغف ولهفة على قراءة كل ماتصل اليه يداى عن هذا الموضوع بشغف ولهفة لاتقل عن تلك التى كانت تلازمنى فى صباى عندما كنت أقرأ الروايات البوليسية والملاحم الشعبية ، وربما يرجع ذلك لسببين : ـ

ـ الشبه الكبير بين الخطة والاسلوب الذى استخدم فى حرب السويس وذلك الذى يستخدم فى الروايات البوليسية ·

ـ الشعور الغامر بالفرحة وراحة النفس فى نهاية الصفحات الطويلة بالانتصار الذى حققه زعيم وشعب يريد الحياة الكريمة على أرضه ·



ايدن

وقصة السويس أغنية جميلة ولحن عميق طالما جاش فى صدور الشعب المصرى واعماقه منذ امد بعيد حتى جاء عبد الناصر وردد الشعب الأغنية على أزيز الطائرات وقصف المدافع، ويخطىء من يدعى بان السبب الحقيقى لحرب السويس هو تأميم شركة قناة السويس ، اذ ان حرب السويس كانت قمة الصراع بين الثورة المصرية ومبادئها منذ فجر ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢ وقوى الاستعمار البريطانى والفرنسى واسرائيل والرجعية العربية، وكان الصدام عنيفا بين اطماع الاستعمار فى المنطقة العربية ومبادىء الثورة التحررية ومساندتها لجميع حركات التحرر فى الوطن العربى وخارجه ، وارى قبل أن ندخل ساحة المعركة أن نشير فى ايجاز شديد الى الاسباب الحقيقية التى كانت وراء حرب السويس :

١ ـ انطلاق الثورة المصرية الى آفاق غير محدودة لم تدر بخلد الاستعمار فى يوم ما ، اذ حققت لشعبها الحرية والاستقلال بأوسع واعمق معنى للحرية والاستقلال ، واراد لها زعيمها ان تكون ثورة عالمية رائدة فطار الى باندونج فى ابريل من عام ١٩٥٥ ليعلن مبادىء ثورته من الحياد الايجابى وعدم الانحياز ومناهضة الاستعمار فى شتى اشكاله واساليبه ، ومؤازرة الثورة لجميع حركات التحرر فى شتى انحاء العالم ، فكان لهذه الدعوة صدى عميقا وواسعا بين شعوب العالم المتطلعة الى الحرية والاستقلال .

٢ ـ نجاح عبد الناصر فى ابراز حقيقة القومية العربية كأساس لتضامن الشعوب العربية ووحدتها، اذ تصدت هذه الشعوب لمحاولة بريطانيا والولايات المتحدة لاقامة حلف بغداد ليربط دول المنطقة بالمعسكر الغربى ، ففشلت بعثة « تمبلر » فى منتصف يناير عام ١٩٥٦ فى ضم الاردن الى الحلف ، وتحت ضغط الجماهير العربية فى الاردن طرد « الجنرال جلوب » ملك الاردن غير المتوج ورحل الى بلده بريطانيا فى مارس من نفس العام . وجاءت اللطمة الاخرى من البحرين عندما هتفت الجماهير الثائرة فى وجه سلوين لويد وزير خارجية بريطانيا « عد الى بلدك » .

٣ ـ تشكيل القيادة المشتركة بين مصر وسوريا والاردن فى اكتوبر عام ١٩٥٥ ، وفى هذا اشارة واضحة الى مدى تضامن الدول الثلاث وامكان تحقيق وحدة عربية شاملة .

٤ ـ صفقة الاسلحا التشيكية لمصر ومعناها كسر الحصار الغربى المفروض ضد تسليح الجيش المصرى ، وكانت هذه الصفقة تعنى تدعيم الجيش المصرى لحماية ثورته ومكاسبها ، الامر الذى يتيح للثورة المصرية مساندة ثورة الجزائر للقضاء على الاستعمار الفرنسى .

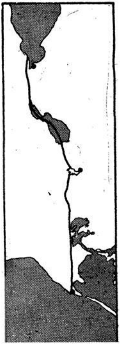
٥ ـ ذعر اسرائيل من الثورة المصرية ، وكذلك فشل اسرائيل فى المرور عبر قناة السويس .

اذن فيمكن اعتبار حرب السويس بمثابة اجراء تأديبى من جانب الدول الاستعمارية ومحاولة منها لارهاب الشعوب المغلوبة على امرها وتطمع فى الثورة والتمرد ، وجاء تأميم شركة قناة السويس بمثابة الذريعة التى يتذرع بها الاستعماريون لضرب مصر ، كما كان بمثابة الشرارة التى الهبت حقد الدول الاستعمارية

بدعوى ان اقتصاد مصر غير سليم ولا يمكنه ان يتحمل نفقات المشروع واصدرت وزارة الخارجية الامريكية بيانا يقول«لم يعد فى استطاعة الولايات المتحدة المساهمة فى تمويل مشروع السد العالى، هذا بالرغم من آن امريكا مازالت مهتمة أشـــد الاهتمام برفاهية شعب مصر واستغلال موارد نهر النيل ، ولكن الموقف قد تغير عما كان عليه حين ابدت الولايات المتحدة رغبتها فى تمـــويل المشروع منذ سبعة شهور ، فالتطـورات التى حدثت فى غضون هذه الفترة لم تكن فى صالح نجاح المشروع ، وقد ظهر هذا اكثر من اى وقت مضى منذ ان ابدت امريكا رغبتها فى المساهمة ». وفى اليوم التالى اعلنت لندن سحب عرضـــها بتمويل المشروع ورددت نفس الكلام تقـــريبا الذى قالته واشنطن فى اليوم السابق .

وقد رد الرئيس جمال عبد الناصر على هـــذه الادعاءات فى خطابه يوم ٢٦ يوليه سنة ١٩٥٦ عندما تساءل « **ماهى التطورات التى حدثت خلال الشهور السبعة الماضية ؟ انهم يحاولون ان يبينوا أنها اقتصادية .. التطورات هى تطورات استقلالية .. تطورات حرية .. تطورات عزة وكرامة .. التطورات التى حدثت هى اننا صممنا ان نقوى جيشنا ونسلحه .. صممنا ان تكون لنا شخصية مستقلة ، مبادئنا التى ننـادى بهـا اليـوم .. الحرية وحق تقرير المصير والقضاء على الاستعمار وعدم الانحياز والتعايش السلمى والحياد الايجابى والتعاون مع جميع الدول . نعادى من يعـادينا ونسالم من يسالمنا** » .

وارادت امريكا وبريطانيا توجيه ضربة الى هذه الثورة والى هذه المبادىء وهذه التطورات ، وايقنتا انهما اذا ما سحبا عرض تمويل السد العـالى فان الثورة ولا شك ستجد نفسها فى موقف حرج امام الجماهير التى آمنت بها والتى وعدتها فى مطلع قيامها باقامة السـد العالى ، وكان المشروع حقا يمثل حلم الشعب فى الرفاهية والانتعاش ، اذ أن المشروع سيحقق زيادة فى الدخل القومى تصل الى ٢٣٤ مليون جنيه سنويا ويوفر المياه اللازمة لاستصلاح ٢ مليون فدان من الاراضى الصحراوية ويولد طاقة كهـربائية تصل قوتها الى ١٠ مليار كيلووات ساعة سنويا.



وغيظها . كما كانت حرب السـويس محاولة للقضـاء على عبد الناصر وثورته حتى يطيب للاستعمار البريطانى الاقامة فى الشرق الاوسط وحتى تبقى الجزائر « فرنسية » ويمكن لاسرائيل الاستيلاء على سيناء والمرور عبر القناة .

وفى حقيقة الامر لم يكن تأميم شركة قنـاة السـويس الا اجراء قانونيا مشروعا اتخـذته الثورة لاسترداد ملكية قناة مصرية صميمة من حيث الشكل والمضمون ، كما كان ردا على وقاحة امريكا وبريطانيا بعد سحبهما لعرض المساهمة فى تمويل السد العالى تحت ستار كثيف من الهجوم على اقتصاد مصر وامكان الثورة فى تحمل مسئولياتها تجاه المشروع .

ففى ١٩ يوليه سنة ١٩٥٦ أعلن فوستر دلاس وزير خارجية امريكا سحب بلاده للعرض الذى كانت قد تقدمت به لتمويل مشروع السد العالى

وامام هذا التحدى الانجلو امريكي تساءل العالم ماذا يمكن أن يفعل عبد الناصر ، ولم يستطع احد ان يتنبأ ، وساد جو من التوتر والقلق ، وانتظرت الملايين من عبد الناصر كلمة ، ولم يخيب عبد الناصر امل الملايين وجاءت الكلمة فى مساء ٢٦ يوليه عام ١٩٥٦ عندما وقف عبد الناصر فى الاسكندرية واعلن بصوته القوى العميق « باسم الامة ٠٠ رئيس الجمهورية ٠٠ تؤمم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية شركة مساهمة مصرية ، وينتقل الى الدولة جميع مالها من اموال وحقوق وما عليها من التزامات ، ويعرض المساهمون وحملة حصص التأسيس عما يملكونه من اسهم وحصص بقيمتها مقدرة بحسب الاقفال السابق على تاريخ العمل بهذا القانون فى بورصة الاوراق - المالية بباريس » ٠

وجاءت الكلمة بردا وسلاما للنفوس القلقة والاعصاب المشدودة المتوترة وتنهدت الملايين فى طول العالم العربى وعرضه بل وفى خارج العالم العربى تنهيدة عميقة طويلة بعد قطع مرحلة الانتظار ولحظات التوتر الشديد ، وفى غمرة الفرحة صفقت هذه الملايين طويلا وهتفت بالحرية والكرامة ٠

وكانت الكلمة نارا حارقة وطعنة الى صدور الاستعمار وعملائه ، وارتعشت لندن وتل ابيب وباريس وواشنطن رعشة الخرف ، وازداد الخوف بالملوك والرجعية فى العالم العربى من تيار الثورة واصالتها وقوة مبادئها ٠

ومنذ تلك اللحظة أخذت الامور طريقين : -

١ - طريق المناورات الدبلوماسية : وعندما اقول الدبلوماسية فاننى اعنى بها المناورات المكشوفة التى تذاع على العالم ، فقد كانت عملية تأميم شركة قناة السويس اجراء قانونيا لم يخل بأى نص من نصوص القانون الدولى او الاتفاقيات الدولية ، ولذلك فلم يلجأ الاستعماريون الحانقون الى محكمة العدل الدولية او اى جهة قضائية أخرى ، وارسلت بريطانيا مذكرة احتجاج الى الحكومة المصرية فرفضت مصر الاحتجاج وردته الى السفارة البريطانية فى القاهرة حتى دون تعقيب عليه ، وقامت بريطانيا وفرنسا بتجميد الاموال المصرية فى بنوكهما ، وعقد فى لندن مؤتمر المنتفعين فى ١٦ أغسطس ودعا المؤتمر الى قيام شركة دولية بالاشراف على القناة وتؤول اليها الحقوق والامتيازات الاساسية للشركة المؤممة ، ورفض عبد الناصر هذا الاقتراح الذى حمله الى القاهرة روبرت منزيس رئيس وزراء استراليا ، وتأتى عملية سحب المرشدين حلقة فى هذه المناورات كمحاولة لتعطيل الملاحة فى القناة وحينئذ تجد بريطانيا وفرنسا ان من واجبهما التدخل لتسهيل الملاحة فى القناة ، كما شهدت الامم المتحدة جزءا من هذه المناورات ٠ وقد باءت جميعها بالفشل امام الحق والمنطق السليم ٠

٢ - الاستعداد للحرب : خلف هذا السياج الكثيف من المناورات والمداورات كانت تجرى عمليات الاستعداد الحربى لغزو مصر ، فقد سمع ايدن رئيس وزراء بريطانيا حينئذ بنبأ تأميم شركة قناة السويس بعد ان اعلنه الرئيس جمال عبد الناصر بدقائق وكان ايدن وقتها يسامر الملك فيصل ملك العراق ورئيس وزرائه نورى السعيد وقد ازعج النبأ جميع الحاضرين ، وسأل ايدن نورى السعيد « ماذا نفعل مع عبد الناصر » ؟ فاجابه : « اضربه ٠٠ اضربه الآن وبشدة » ٠ وحتى لانضطر الى سرد تفصيلات يضيق حيز المقال عن استيعابها ارى ان نشير الى الاستعدادات العسكرية التى اتخذتها كل من بريطانيا وفرنسا واسرائيل لغزو مصر فى عدة نقاط : -

- فى لندن يجتمع ايدن فور سماع النبأ بكبار المسئولين فى الحكومة البريطانية من بينهم رؤساء اركان الحرب ويقرر اعداد خطة لعمل عسكرى تستهدف احتلال القناة ، وفى باريس تقرر الحكومة الفرنسية ضرب مصر حتى تبقى الجزائر « فرنسية » ٠

- فى يوم ٢٨ يوليه يجتمع عدد من كبار المسئولين الفرنسيين بعدد من المسئولين الاسرائيليين فى ركن هادىء بغابة **بولونيا** احدى ضواحى باريس ، ويتفق الجميع على ان تكون اسرائيل « شريكة فى الضربة » ٠

- فى يوم ٣ أغسطس بدىء فى اعداد القوات العسكرية البريطانية والفرنسية التى ستبحر الى مالطة وقبرص ٠

- في ٨ أغسطس توقع فرنسا وبريطانيا اتفاقية بشأن تشكيل قيادة عسكرية مشتركة ٠

- كانت خطة الهجوم الاولى هي مهاجمة الاسكندرية في سبتمبر ولكن الجانب الفرنسي أصر على مهاجمة بورسعيد ، لأن الفرنسيين كانوا على اتصال اوثق بالاسرائيليين ، ويوافق ايدن في آخر اغسطس على تعديل الخطة الاولى واشراك الاسرائيليين في العملية ٠

- في ٢٠ سبتمبر يطير ابيل توماس مدير مكتب وزير الدفاع الوطني الفرنسي والكولونيل مانجان الى تل ابيب لابلاغ الخطة الجديدة الى اسرائيل ويدرسان احتياجاتها العسكرية ٠

- في الفترة مابين ١٢ - ١٩ أكتوبر وضعت اللمسات الاخيرة للخطة في باريس بين الفرنسيين والاسرائيليين، وكان الفرنسيون يحيطون الدوائر البريطانية في لندن علما بها يوما بيوم ٠

- **مؤتمر سيفر :** في يوم ٢٢ أكتوبر وصل الى باريس بن جوريون رئيس وزراء اسرائيل حينذاك وبرفقته موشي ديان قائد الجيش الاسرائيلي وشيمون بيريه مدير عام وزارة الدفاع واجتمع الوفد الاسرائيلي بالوفد الفرنسي الذي كان يرأسه جي موليه رئيس الوزراء في ضاحية « سيفر » Sévres ، وفي اليوم التالي انضم الى المحادثات الوفد البريطاني برئاسة سلوين لويد وزير الخارجية وتم الاتفاق في المحادثات التي استمرت حتى ٢٤ أكتوبر على الآتي : -

(أ) يبدأ الاسرائيليون بالهجوم على سيناء بقوة مستهدفين الوصول الى مشارف قناة السويس في اقصر وقت ممكن ٠

(ب) تراقب طائرات « الكامبيرا » البريطانية المطارات المصرية لتحول دون - الاشتراك الفعلي للقوة الجوية المصرية في معركة سيناء ٠

(حـ) تقوم الطائرات الفرنسية بحماية المجال الجوي الاسرائيلي ويقوم الاسطول الفرنسي بحماية المدن الاسرائيلية الساحلية وتضرب مواقع رفح المحصنة ، كما تتولى الطائرات الفرنسية القاء المؤن والعتاد للقوات الاسرائيلية التي تلقى في سيناء ٠

(د) تذيع اسرائيل بلاغا حربيا قبل صدور الانذار البريطاني الفرنسي المشترك يعلن ان قواتها على مشارف القناة ٠

(هـ) تحتل القوات الفرنسية والبريطانية القناة بعد عدة ايام بحجة حمايتها وفصل الفريقين المتقاتلين ٠

- في ٢٥ اكتوبر اجتمع مجلس الوزراء البريطاني وبحث احتمال قيام نزاع بين مصر واسرائيل ، ويقرر التدخل بحجة فصل المتحاربين والمحافظة على حرية المرور في القناة ٠

ولم تغمض مصر عينيها عما يجرى حولها من استعدادات وتحركات مريبة بين تل أبيب وباريس ولندن ، وأكدت التزامها بضمان حرية الملاحة في القناة طبقا لمعاهدة القسطنطينية عام ١٨٨٨ ، كما أكدت ان الملاحة في القناة تسير على خير ما يرام وذلك بشهادة قادة السفن التي عبرت القناة منذ تأميم شركة القناة ، وأكدت أيضا تعهدها بتعويض حملة أسهم الشركة المؤممة وذلك حتى تسد الطريق في وجه المناورات الدبلوماسية، ومن الجانب الآخر بدأت مصر في اتخاذ التدابير العسكرية اللازمة لمواجهة أي عدوان محتمل على أراضيها اذا ما وصل الخبل بلندن وباريس الى حد العدوان المسلح عليها ٠

وماذا عن موقف الولايات المتحدة ؟ يقول « هنري آزو » مؤلف كتاب « فخ السويس » انه موقف كان يتسم بالغموض ، فبينما كانت تدعو الى اتخاذ الاجراءات السلمية لتسوية المشكلة لم يفتها أن تؤيد استخدام القوة اذا مانفدت جميع الوسائل السلمية ، وحاول المسئولون الامريكيون ان يغمضوا اعينهم عما يجرى حولهم ، بل ويؤكد « آزو » ان امريكا لم تفعل شيئا لمنع الحملة ضد مصر ، بل قدمت في اطار اتفاقية حلف الاطلنطي معدات لايمكن بدونها قيام الحملة ومن ذلك المدافع المضادة للدبابات عيار ١٠٦ ، وكذلك استخدمت فرنسا القاعدة الايطالية في « برنديزي » لنقل طائراتها الى قبرص واسرائيل ولم يكن ليتم هذا لو لم تتحقق روما من موافقة واشنطن ٠



بداية المعركة :

بينما كانت الطائرات الفرنسية تنتشر فى سماء اسرائيل لحمايتها وكانت قطع الاسطول الفرنسى تربض عند سواحل اسرائيل لحراستها ايضا ، وكانت طائرات « الكامبيرا » البريطانية تحلق فوق المطارات المصرية تجرأت اسرائيل وقامت فى الساعة الخامسة من مساء ٢٩ أكتوبر بالقاء عدد من قوات المظلات عند مضيق متيلا فى سيناء على بعد ٤٠ ميل من قناة السويس ، وكما يقول « ارسكين تشيلدرز » فى كتابه « الطريق الى السويس » تعرض المظليون الاسرائيليون فى متيلا لنيران السرية المصرية المرابطة فى المكان ولنيران الطائرات المصرية الى ان وصلت الطائرات الفرنسية والاسرائيلية فضمنت لهم شيئا من الغطاء الجوى ، والقت اليهم بالمؤن والعتاد ٠ وتعرض المظليون الاسرائيليون لنيران مدافع الهاون المصرية طيلة يوم ٣٠ أكتوبر التى ردت عليها الطائرات الفرنسية بصواريخها منزلة بعض الخسائر بالنجدات القادمة من السويس ، ولم يتقدم الاسرائيليون شبرا واحدا فى ذلك اليوم ويقول « هنرى أزو » ان القوات الاسرائيلية لم تستطع التقدم شبرا واحدا فى الجبهة الوسطى وتراجعت امام النيران المصرية ، فطلبت مساعدة سلاح الطيران ، والقت الطائرات الاسرائيلية الفرنسية قنابل « النابالم » على المرتفعات التى تتحكم فى الموقع » ٠ « وعند أبو عجيلة لم تستطع القوات الاسرائيلية التقدم شبرا واحدا بل منيت بخسائر فادحة ، ولم تتمكن من الاستيلاء على « أبو عجيلة » الا بعد ان انسحبت القوات المصرية من الموقع فى ٢ نوفمبر لمواجهة القوات الانجلو فرنسية ، وفى « شرم الشيخ » استمر القتال حتى يوم ٥ نوفمبر » ٠

ولكن لكى تكتمل فصول المسرحية اذاعت تل ابيب بيانا عسكريا اثر القائها لبعض المظليين عند ممر متيلا مساء ٢٩ أكتوبر قالت فيه أن قواتها تتجه نحو قناة السويس ٠ وصدر الانذار الانجلو فرنسى المشترك يوم ٣٠ أكتوبر يدعو القوات المصرية والاسرائيلية بالابتعاد عن قناة السويس ١٠ اميال شرقا وغربا فى مدى ١٢ ساعة والا اضطرت القوات الفرنسية البريطانية التدخل لحماية القناة ٠ انذار مضحك ولا شك ! ووجه الاضحاك فيه ان القوات الاسرائيلية كانت حتى يوم ٣٠ أكتوبر وهو تاريخ الانذار مازالت عند اطراف سيناء الشرقية والجنوبية وكما يقول « ارسكين تشيلدرز » ان اسرائيل لم تكن قد حققت حتى ٣٠ أكتوبر عند ما صدر الانذار أى نصر مهما كان شكله ، ولم يكن القتال بين مصر واسرائيل يشكل أى تهديد على القناة » ٠

وما الداعى للانذار ما دامت القوات الفرنسية البريطانية قد تدخلت فى المعركة منذ اللحظة الاولى ! وعلى كل فقد رفض عبد الناصر الانذار ،



وكانت فرنسا وبريطانيا جادتين فيما اعتزمتا عليه ، فقد بدأتا بالهجوم العلني السافر على مصر في الساعة السابعة والنصف من مساء ٣١ أكتوبر أي بعد انتهاء مهلة الانذار بعدة ساعات .

وفي مواجهة هذا الهجوم الجديد أصدر عبد الناصر اوامره للقوات المصرية بالانسحاب من سيناء . وقد انقذ هذا القرار القوات المصرية من عزلها في سيناء وبالتالي تجنبت الفخ الذى رسمه الاعداء .

وتركز الهجوم الفرنسي البريطاني على المطارات المصرية والاهداف العسكرية والغارات الارهابية على القاهرة والمدن الكبرى ، وكان هدفهم الاول شل حركة سلاح الطيران المصرى وضرب طائرات « اليوشين » وهى رابضة على الارض ولم تفلح هذه المحاولة اذ أن كل ما أصابوه عبارة عن طائرات قديمة اما « اليوشين » فقد اخفيت فى مطارات سرية ، والهدف الثانى وكانت تشترك فيه الاذاعة البريطانية بقبرص آنذاك والمنشورات التى تلقى على المدن والقرى هو اثارة الشعب ضد عبد الناصر للاطاحة به ، وفشلت هذه المحاولة أيضا عندما واجهت بريطانيا وفرنسا واسرائيل جيشا قويا وشعبا يلتف حول زعيمه التفافا كان تعبيرا عن قمة المحبة والرغبة فى التضحية .

وفى ٥ نوفمبر تم القاء ٦٠٠ مظلى بريطانى فى منطقة الجميل على بعد ١٠ كيلومترات غربى بورسعيد ، وكما يقول آزووتشيلدرز « ان المظليين والطائرات البريطانيه قد استقبلوا بنيران جهنم ، وتصدت المدافع للطائرات بمجرد ظهورها ووجهت اليها نيرانا عنيفة فاصيب تسع منها وفر الباقى الى قبرص . كما تصدت المدفعيه المصريه للقوات الفرنسيه التى القيت من ناحيه الشرق ، وكان القضاء عليهم مؤكدا لولا ان هبت الطائرات لنجدتهم » . ويجمع المؤرخون على ان معركة بورسعيد كانت معركة ضارية استخدمت فيها فرنسا وبريطانيا كل امكانياتها ، كما دافع المصريون عن المدينة ببسالة منقطعة النظير ، ولم تتوقف مقاومتهم حتى بعد أن دخلت القوات البريطانية المدينة ، فتحول طابع القتال وأخذ طابع حرب العصابات وانتقل من شارع الى شارع ومن منزل الى منزل .

وخلال العدوان على مصر ظهرت لاول مرة مجموعة الدول الافروآسيوية ودول عدم الانحياز كقوة هائلة تؤثر فى مجريات الاحداث الدولية، فوقفت الى جانب مصروادانت الاستعمار واساليبه وأبدت استعدادها لتقديم المعونات اللازمة لمصر ، وكذلك تضامنت الدول العربية مع شقيقتهم فى وجه العدوان الثلاثى .

وصممت مصر على أن تسير الشوط وحدها فى تصميم وتحد . وجاء انذار موسكو لفرنسا وبريطانيا واسرائيل بوقف عدوانها على مصر والا تعرضت عواصمهم للصواريخ الروسية ،

كمـا أرغم الرئيس الامريكى ايزنهاور أصدقاءه على وقف اطلاق النار • وأدركت الدول المعتدية أن المعركة لم تعـد فى صـالحها ، فمصر تقـاوم والعـالم يقف بجانبهـا ، بينما يرتبك اقتصاد بريطانيـا وتنهـار قيمة الاسترلينى ومظاهرات السخط والاحتجاج تجتاح لندن نفسها• وتذعن بريطانيا وفرنسا ويتوقف اطلاق النار فى الساعة الثانية من صـباح يوم ٧ نوفمبر • ومرة أخرى تحاولان المسـاومة ولـكن عبد النـاصر يتصدى للمحاولة ويحبط محـاولات فرنسـا وبريطانيا واسرائيل ويفرض على القوات المعتدية الانسحاب الغير المشروط •

كشف الحساب :

لا يتسع المجـال لتقـديم كشف واف بقيمـة الارباح والخسائر، ولكنى أقول أن مصر قد ضحت بالرجال والعتـاد للدفاع عن حريتهـا وخرجت منتصرة انتصارا لم يحلم به العـالم ، ويتساءل « آزو » ماذا خسرت مصر ؟ لا شىء تقريبا فيمـا عدا القليل من جيشها• وماذا كسبت؟ :السيطرة على قنـاة السويس وتحـرير اقتصـادها ، أما عبد الناصر فقد أصبح فى نظر الشعوب الافريقية والأسيوية البطل الذى يقاوم الاستعمار ، ولم تتمكن اسرائيل من حلمها فى شبه جزيرة سيناء ، وخسرت بريطانيـا وفرنسـا كـل شىء حتى استثماراتهما فى مصر وهى مبالغ طائلة » •

••• واستقلت الجزائر « الفرنسية » وثارت العراق ضد حلف بغداد والملكية ، وثارت اليمن ضد الامامة والتخلف وانفجرت الثورة فى الجنوب العربى ، حتى أن بريطانيـا أعلنت عن تخليها عن قاعـدة عدن فى عـام ١٩٦٨ وتحررت دول كثيرة من الاستعمار وسياسة المدفع وكانت حرب السويس بمثابة عملية « غسيل مخ » مما دفع الاسـتعمار الى أن يتخلى عن أسـاليبه القديمة البالية • بل ومازال شـبح السويس بعد مضى أكثر من عشر سنوات يخيف المحافظين البريطانيين ويرهبهم ، وقد برع هارولد ويلسـون رئيس وزارة العمال البريطانية الحالية فى اسـتخدام هذا السلاح كلما أراد اذلال المحافظين ، وآخر هذه المحاولات عندما فرض التقشف على بريطانيا وجمد الاجـور لمواجهة عجز ميزان المدفوعـات البريطانى فى صيف هـذا العام • وكما يقول الرئيس جمـال عبد النـاصر « **مصر الآن أكثر حرية من بريطانيا نفسها بينما بريطانيا تحولت الى مستعمرة أمريكية لدرجة لا تسمح لها حتى بمجرد ابداء الرأى فى ايـة قضـية دولية قبل اختيار الألفاظ والاستئذان من واشنطن** » •

والحديث عن حرب السـويس حديث شـائق وممتع يطول لو تركنا له العنان ، وقد استطاع « هنرى آزو » فى كتابه فخ السويس أن يقدم لنا على مدى ٥٢٤ صفحة من الحجم المتوسـط تفاصيل كثيرة ومثيرة عن حرب السويس ، وكان محايدا الى حـد كبير اللهم الا فى بعض الهنات التى استطاع الدكتور أحمد كمال زكى مراجع الترجمة العربية أن يرد عليها ويفندها ، وان كان « آزو » لم يستطع اخفاء نبرات الفرنسى المغلوب على أمره والتى نحسـها عبر صـفحات الكتاب • والأستاذ محمود حسن ابراهيم مترجم الكتاب يستحق الثناء على المجهود الذى تجشمه فى ترجمة الكتاب الى العربية فى لغة سـهلة جميلة مترابطة •

شوقى وهبة

المنقذ من الضلال

نصر

بقلم سعيد زايد

الاستاذ الدكتور عبد الحليم محمود رجل متصوف علما وعملا ، فهو يعشق التصوف ويتعمق أفكاره ويستشف حقيقة المتصوفين من ظواهر كلامهم ويستبين الهاماتهم من وراء آرائهم المبسوطة ، ولا يتقيد بحرفية نصوصهم ، بل يبحث فيما تحمله من معان خفية كي يتسنى له تكوين رأى صحيح يرضى ضميره الحي ويتفق مع مايتحلى به من نفس زكية تحب الحق وتبغض الجور ٠

ويتجلى حب الدكتور عبد الحليم للتصوف فيما أخرج لنا من كتب مؤلفة أو محققة ، وخاصة المجلد الذى نعرض له اليوم ٠

وهذا المجلد يحتوى على ثلاثة أقسام ، عرض المؤلف فى القسم الأول لحياة الغزالى وكتبه ، ووقف طويلا عند كتاب احياء علوم الدين ، فاختار بعض النصوص التى تشرح منهجه فى تأليف كتابه ، ثم شرح موقف الامام من الفلسفة بصفة عامة ٠ أما القسم الثانى من المجلد فقد أوقفه الدكتور عبد الحليم على تحقيق كتاب الامام « المنقذ من الضلال » ٠ وخص القسم الثالث بأبحاث فى التصوف، وهو أكبر قسم من المجلد ، وقد قسمه المؤلف الى أربعة فصول ٠

أفاض الدكتور عبد الحليم فى ترجمة الامام الغزالى ، وتتبعه مونودا صغيرا وشابا يافعا وكهلا نابها وشيخا اماما ٠ وروى لنا مراحل دراسته وتعليمه وشهرته وذيوع اسمه ، ثم « انتفاضته العارمة التى انتزعته قسرا وفى عنف من وسط النعيم والأبهة والمجد الى حيث الانزواء والعزلة » فأحدثت انقلابا كليا فى حياته ٠ وهو انقلاب لا يتسم بالفجاءة ، بل كانت له مقدمات تمثلت فى حب استطلاع الامام الغزالى لكل رأى ، والبحث فى كل فكرة ، وتلمس الجذور الاولى لكل مذهب ، فصاحب الباطنيين وخالط الظاهريين وقرأ كتب الفلاسفة وجادل المتكلمين وتأمل فى طرق المتصوفين ، كل ذلك فى استقصاء وعمق أديا به الى الشك المطلق الشامل العام ٠ ولكن

هذا الشك « تبخر وزال ، لا بنظم دليل وترتيب كلام ، بل — على حد قوله — بنور قذفه الله تعالى في الصدر » . انه الآن يؤمن بأصول العقيدة الثلاثة ، يؤمن بوجود الله ووحدانيته ، ويؤمن بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ويؤمن بالبعث والنشور . ولكنه يريد أن يكيف هذا الايمان . ان المتكلمين يدعون أنهم أهل الرأى والنظر ، والباطنية يقولون انهم أصحاب التعليم والذين اختصوا بالاقتباس من الامام المعصوم ، والفلاسفة يعلنون أنهم أهل المنطق والبرهان ، والصوفية ينادون بأنهم أهل المشاهدة والمكاشفة . فأيهم على صواب ، وأى فريق منهم أحق أن يتبع ؟ ان علم الكلام لا يشفي غلته لأنه قليل النفع ، فليس هو ممن يرضى بالوقوف عند مناقضات الخصوم ومؤاخذتهم بلوازم مسـلماتهم . والفلسـفة لا ترضى مطلوبة ، فان العقل — وهو وسيلتها الأولى فى المعـرفة والحكم على الأمور — « ليس مسـتقلا بالاحاطة بجميع المطالب ، ولا كاشفا للغطاء عن جميع المعضلات » . ومذهب الباطنية لا يصمد حتى آخر الشوط ولا يمكن الاعتمـاد عليه فى ايجاد حل لمشكلة الكون . فلم يبق اذن الا طريق الصوفية ،وطريقهم ذو شعبتين : شعبة العلم ، وشعبة العمل ؛ وقد ولج الامام الغزالى بابهما ، فدرس كتب المتصوفين فى نهم ، ولكنه عرف أن هذا الدرس وهذا التحصيل ليس هو الموصـل الى المعرفة ، فان الأجدى والأنفع هو الجانب العملى من التصوف وهو « الاقبال بكنه الهمة على الله تعالى » ، وبذا وصل الامام « الى النور والاشراق واليقين » .

وقـد كتب الغزالى عشرات الكتب ؛ ولـكن الدكتور عبد الحليم محمود — فى هذا القسم من مجلده — وقـف عند اثنين منهـا وقفة قصيرة ، وهما كتاب المنقذ من الضلال ،وتهافت الفلاسفة؛ ووقـف وقفة أطول عند كتـاب ثالث هو احياء علـوم الدين ، ويقول ان الاخلاص وحده هـو موضوع الكتاب وهو الباعث من كتابته والهدف الذى ابتغـاه الغزالى من تأليفه . فلقد اعتكف الامام الغزالى وأبعد نفسه عن أضواء الشـهرة وأخلص لنفسه ولدينه ولربه فأخرج للمسلمين كتابا قال عنه الامام النووى : « كاد الاحيـاء أن يكون قرآنا » . وقد بسط لنـا المؤلف تحليلا



الغزالى

وافيا لاقسام الكتاب و «كتبه» وأبوابه وفقراته ، وأتبع ذلك بذكر آراء بعض العلماء فيه ، مثـل الحافظ العراقى والزبيدى وابن السبكى وعبد القادر العيدروس وعبـد الله العيدروس ، ثم اختـار نصوصا خمسـة من الكتـاب معتمدا على طبعة السراوى ومرقما لها بحسب ماوردت فى صفحاتها وهى نصوص فى : الطريق ، شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف فى اكتساب المعرفة، دليل الكشف ، الفرق بين العلم النظرى والعلم الكشفى ، والجود الالهى . وكلها — كما ترى — تدور فى فلك التصوف .

ولخص المؤلف بعد ذلك رأى الغزالى فى الفلسفة، معتمدا — فى الأغلب — على كتـابه « تهـافت الفلاسفة » هذا فيما يتعلق بالقسم الأول ، أما القسم الثانى فقد قصره الدكتور عبد الحليم على تحقيق كتاب « المنقذ من الضلال » والتعليق عليه، وهو ما سنتحدث عنه فى آخر المقـال ان شـاء الله .

ونعرض الآن للقسم الثالث من الكتاب وعنوانه « أبحاث فى التصوف » . ويمكننا أن نعتبر هذا القسم كتابا مستقلا بذاته، ولذا فانا لم نكن مغالين حين أطلقنا كلمة « المجلد » على مؤلف الدكتور عبد الحليم ، وهو نفسـه يؤيدنا فى ذلك ، فقد

وضع اسمه تحت عنوان هذا القسم كما لو كان كتابا مستقلا يقع بين دفتي غـلاف خاص وبدأه بالبسملة • وينقسم هذا القسم الى أربعة فصول، تحدث فيها المؤلف عن التصوف لفظا وتعريفا وموضوعا ونشأة ، ثم بين مصادرة ، وتحدث عن صلة التصوف بالشريعة ،وصلته بنظرية المعرفة، ثم عالج بعض قضايا التصوف •

لقد اختلف الباحثون في أصل كلمة «تصوف» **منهم من ارجعهـا الى كلمة « سوف » اليونانية التي تعني الحكمة ، ومنهم من نسبها الى «صفة» مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنهم من قال انها من « الصفـاء » ومنهم من قال انها مشتقة من « الصف » اى الصف الأول في الجهاد• ولكنا نرى ـ مع الدكتور عبد الحليم ـ ان الكلمة وضعت في المبدأ للدلالة على العزوف عن الدنيا ، ورأى أصحابها أن لبس الصوف يحقق هدفا من أهدافهم التي تتصل بالتقشف فلبسوه ، فكان من السهولة أن يطلق عليهم « صوفية » فشاع عنهم هذا •**

والتصــوف ، وان مال كثير من العلمـاء فى تعريفه الى الجـانب الاخـلاقي ـ فانه ليس كل فاضل متصوفا ، ومن باب أولى ليس كل داعية الى الاخلاق بمتصوف • وكذلك الزهد فانه وان كان كل متصـوف زاهـدا ، فليس كل زاهـد متصوفا • والعابد أيضا ، فان كان كل صوفى عابدا متبتلا ، فليس كل عابد متبتل صوفيا • وقد فرق ابن سينا بين الزاهد والعابد والصوفى فى كتابه « الاشارات والتنبيهات » •

هذا ، وقد حاول كثير من العلمـاء أن يضعوا تعريفا للتصوف ، ولكن المؤلف لم يرتض منها الا تعريف الكتاني الذي يقول فيه : «ان التصوف صفاء ومشاهدة » ، فهو تعريف «يعبر عن الحقيقة الكاملة» • أما مصادر التصوف فلا ينبغي وضعها موضع النظر والدراسة ، ذلك « ان الاتجاه نحو التصوف والنزوع اليه انما هو فطرة واستعداد• أما الذوق الصوفى والشعور الصوفى والمعرفة الصـوفية فانهـا استمداد من مصـدر النور والهداية» • فالتصوف قد وجد مع وجود الانسان وقبل نشـوء أية حضارة على الاطـلاق • والذين يحـاولون أن يلتمسوا أسـبابا خارجية لنشأة التصوف الاسلامى انما يجهدون أنفسهم بلاطائل، فالتصوف الاسلامى يكون جزءا جوهريا من الدين، وهـو بالتـالى ليست له أية صلة بالتصـوف المسيحى • ومن شروط التصوف شرط « التأثير الروحى » أو « البركة » التى تنتقل من «الشيخ» الى «المريد» • فعلى حد قول أبى يزيد البسطامى « من لم يكن له أستاذ فامامه الشيطان » •

ويدافع المؤلف عن التصوف الاسلامى ويبرئه من فكرة الاتحاد والوحدة والحلول ، ويقصره على الجهاد وتزكية النفس لرضاء الله ومعرفته ، ولذا فانه يرى ان النبى صلى الله عليه وسلم كان أول صوفى فى الاسـلام • ومن جهة أخرى يحاول المؤلف أن يقرب بين توكل التصوف وزهده وبين روح القرآن الكريم • فاذا كان القرآن قد قال : « ولا تنس نصيبك من الدنيا » فانه قد قال ان الآخرة خير وأبقى هـذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان الصـوفى ليس رجل آخرة فقط فهو ينشد القوة والتعفف والعيش من الكسب الحلال ويتزوج • ثم ان كل عمل حلال هو عبادة ، وبذا « تكون الدنيا دينا ويكون الانسان الهيا يتخلق بأخلاق الله » •

ويفند المؤلف الدعوى التى تقول بعدم وجوب التكليف على الصوفى بعد أن يصل الىدرجة معينة من المعرفة ، ويستشهد برأى للشيخ عبد الواحد يحيى يقــول فيه : « اننـا نرى ضرورة التزام

الشريعة لكل انسان ، ولكننا نؤكد ـ ونحن على يقين من الامر ـ لهؤلاء الذين يريدون أن يسلكوا الطريق الصوفي بانهم لن يصلوا حتى الى أولى مراحل الطريق اذا لم يلتزموا الشريعة التزاما تاما » • ويتوج رأيه ببعض حجج للامام الغزالي الذى يقول : «بل معنى ارتفاع التكليف عن الولى ان العبادة تصير قرة عينه ، وغذاء روحه ، بحيث لا يصبر عنه ، فلا يكون عليه كلفة فيه » •

ثم يتعرض المؤلف لموضوع كان له أثر كبير في تاريخ الفكر الاسلامي ، وصرع في ميدانه كثيرا من المفكرين ذلك هو موضوع وحدة الوجود، ويبدأ حديثه فيه بملاحظة هامة جدا تزيل كل لبس وتنير السبيل أمام كل منصف ، تلك هي التفرقة بين وحدة الوجود ووحدة الموجود ، وينفى بشدة أن الصوفية وعلى رأسهم ابن عربي والحلاج قالوا بوحدة الموجود ، تلك الفكرة التي كان لها مجال في الفكر اليوناني عند هيراقليطس ، وفي العصر الحديث عند شلي ، ويقول ان الخصوم هم الذين فسروا قولهم «بالوجود الواحد» ، أى وجود الله المستغنى بذاته عن غيره ، بالفكرة الفلسفية عن وحدة الوجود بمعنى وحدة الموجود • وما قتل الحلاج الا لسبب سياسى •

ويهاجم المؤلف أولئك الذين ينهجون منهجا عقليا عندما يطرقون باب الدين ، فيخوضون في الذات الالهية والصفات والقدر، ولذا فانه لايرضى عن أعمال الفلاسفة والمعتزلة ومدرسة الشيخ محمد عبده وان لم ينف ايمانهم بالله • ويهاجم كذلك الفلسفة الوجودية في عنف •

ويرى الدكتور عبد الحليم « ان البحث العقلى فيما وراء الطبيعة عبث » ، فيهاجم علم المنطق بما فيه من استقراء وقياس ، ويحكم بقصور العقل فيما يتعلق بالاخلاق والالهيات ، فلولا هذا القصور لما نزلت الاديان واقتصرت على الاخلاق والالهيات ، فعلى حد قول ابن عبد البر : «ان الله ليس كمثله شيء : فكيف يدرك بالقياس أو انعام نظر ! » •

ولكن أليس هناك من سبيل الى المعرفة في الالهيات ؟ ان السبيل موجود ، وهو في رأى المؤلف معارج القدس أو منازل السالكين أو مدارجهم ، أو منازل الارواح ، فليست الا طرق الصوفية وهى « المقامات والاحوال التي يسلم كل مقام منها الى ما بعده ، وكل حال منها الى الذى يليه ، حتى يصل الانسان الى القرب ، والمشاهدة، ويستغرق في ملكوت يسمو على الوصف» • واذا كان الصوفى والشاك يتفقان في ان المعرفة الحسية والمعرفة العقلية لا توصلان الى اليقين ، فان الصوفى يتعدى ذلك وحده الى المعرفة عن طريق الالهام أو البصيرة أو العلم اللدنى • ويرى المؤلف أيضا ان البحث العقلى في الدين « ارستقراطية عقلية يجرى وراءها الكثيرون » ، بدأ منذ عصر اليونان ، وقد كان وما زال يهدم بعضه بعضا ، وفي اخفاق متتابع فالفلسفة منذ عصر سقراط « تتخبط وتتعثر ، وتتضارب وتتناقض ، وتحل وتعقد ، ولا تصل البتة الى نتيجة حاسمة في أية مسألة من مسائل ما وراء الطبيعة الشائكة ، وكذلك علم الكلام • وطريق البصيرة ـ في هذا المجال ـ هو الطريق الموصل الى المعرفة •

وتعرض الدكتور عبد الحليم ـ بعد ذلك ـ لحديث الرهبانية الذى يقول « لارهبانية في الاسلام » فذكر انه حديث موضوع ، وذكر انه وضع في القرن الثالث الهجرى تدعيما لتفسير جديد للآية السابعة والعشرين من سورة الحديد التي ورد فيها ذكر « الرهبانية » ، وهو تفسير يحرمها ، بعد أن كان مفسرو القرون الثلاثة الاولى للهجرة أمثال « مجاهد وأبو امامة الباهلي » والمتصوفة القدامى يفسرونها تفسيرا يجيز الرهبانية ويمتدحها •

والتصوف ـ بعد ـ ليس دخيلا على الاسلام ، بل هو ـ كما يقول الشيخ عبد الواحد يحيى ـ يكون جزءا جوهريا من الدين الاسلامي ، والذين ذهبوا ب « الصوفية » الى أصل أجنبي يوناني كان أو هندى أو فارسى انما يفترضون فروضا رخيصة ، فالمصطلحات الصوفية انما ترتبط ارتباطا وثيقا باللغة العربية •

هذا هو جوهر ما يستخلص من آراء من أبحاث المؤلف في التصوف • وهى أبحاث قيمة ، وحبذا لو وحدها الدكتور عبد الحليم في كتاب مستقل يحمل عنوانا دالا • ذلك ان الافكار التي تضمنتها

جد خطيرة ، وأخشى أن يضعف عدم الاحكام المنهجي أثرها المرتجى · ولقد دافع المؤلف عن المتصوفة الذين قيل انهم قالوا بوحدة الوجود أو الحلول ، وذكر أمام أسمائهم عبارة « رضى الله عنه » وقال ان السياسة هي التي شوهت آراءهم وهي التي تسببت في اضطهاد واغتيال بعضهم· وهـذا قول منصف ، ويزيده انصافا ذكر بعض النصوص التي تدل على وجهة نظر المؤلف ، فهذا موضوع خطير لا يمكن أن يمر به مرورا سريعا ، ونامل أن يستدرك هذا في الكتاب الذى نقترحه عليه · ولقد هاجم الدكتور في أبحاثه هذه النظر العقلى فيما وراء الطبيعة والاخلاق · ولكن العقل الذى وهبنا الله اياه وميزنا به عن سائر الكائنات لا يمكن أن يتعطل ويقف جامدا ، ولقد دعا الله الانسان الى التفكر في ملكوته وكونه ، وليس كل انسان بمستطيع أن يسلك مسلك المتصوفة، كما قال هو نفسه في الجزء الاول من مجلده، فطريق البصيرة طريق صعب يتطلب استعدادا خاصا ، وسيبقى التفكير العقلى ما بقى الانسان على ظهر البسيطة ، ومن ناحية أخرى فقد صال العقل وجال في ميدان الاخلاق فالواجب الاخلاقى والحق الاخلاقى والمسئولية الخلقية والجزاء الاخلاقى وما الى ذلك من قوالب خلقية ، كلهـا حدود وضعها العقـل في مجال المعاملة الحسنة لبنى البشر أجمعين ·

وقد أوقف الدكتور عبد الحليم القسم الثانى من مجلده على تحقيق كتاب الغزالى « المنقذ من الضلال » والتعليق عليه · ولقد دل تحقيقه لهذا الكتاب على فهم معانيه فهما عميقا ، تدل على ذلك الترقيمات والفواصل التى وضعها للنص · وقد أثبت في الهوامش بعض الشروح لبعض الالفاظ التى رآها غامضة على القارىء ، كما أثبت ترجمة للغزالى أو مقـالا عنـه بقلم خطيب نيسـابور أبى الحسن عبد الغـافر بن اسـماعيل · وهى ترجمة لا تخرج كثيرا عن الترجمة التى كتبها سيادته في القسم الاول من مجلده ، أفما كان الاولى أن يوحد بينهما كي يحفظ للمنهج رونقه ؟ ويجرنا الكلام عن المنهـج الى بعض التعليقـات المطولة التى أثبتت في هوامش المنقذ من الضلال، ونرى انه كان من الاجدر أن توضع ضمن ماكتب في القسم الاول من المجـلد عن فلسفة الغزالى ، فيضـاف الى هذه الفلسفة تحليـل شامل لكتاب المنقذ من الضلال ، لا كما فعل الدكتوران جميل صليبا وكامل عيـاد منذ أكثر من ثلاثين عاما ، بل تحليل تظهر فيه الآراء الجـديدة التى أبرزها مهرجان الغزالى الذى عقد في دمشق سنة ١٩٦١ ·

بقيت ملاحظة أخرى على التحقيق· ان الدكتور عبد الحليم لم يذكر لنا النسخ التى اعتمد عليها، هل هى نسخ مخطوطة أم هى نسخ مطبوعة وغير محققة ؟ انه يذكر في الهوامش أحيانا تعليقا على احدى الكلمات انها في نسخة أخرى كذا ، فما اسم هذه النسخة ؟ ان كتاب المنقذ من الضلال قد ظهرت له طبعات منذ حوالى مائة عام ، وقد ترجم بعضـهـا ، بل انه قد بدأ الاهتمام به قبل ذلك حينما نشره وترجمه الى الفرنسية اشميلدرز في كتـابه عن المدارس الفلسفية عنـد العرب سنة ١٨٤٢ ، كما ذكر الدكتور عبد الرحمن بدوى في كتابه الرائع « مؤلفات الغزالى » ، وما زالت له بعض المخطوطات التى لم تخرج الى النور بعد · وأعتقد اعتقادا جازما أن الدكتور عبد الحليم لو حاول جمع هـذه المخطوطات وقارنهـا بمـا طبع وناقش الترجمـات التى جرت بشأن الـكتاب وفصل خطوات عمله في منهج مرسـوم لأخرج لمحبى الحقيقة عملا علميـا عظيما ، فهو خير من يفهم الغزالى ويتعمق قوله ·

وبعد ، فان هذه هنات طفيفة على عمل علمى جدير بالثنـاء ، وجل من لا يسهو ، فقد لا يزيد التـحقيق الذى نطلبه على التـحقيق الذى أثبته الدكتور عبد الحليم أو ينقص منه شيئا ، ولكننا نبغى فصل المقـال ممن يستطيع أن يقول كلمة الفصل ·

سعيد زايد

تاريخ العِلم

بقلم : فؤاد شاكر

● « ان أوربا تدين للعرب وللحضارة العربية · وان الدين الذى فى عنق أوربا وسائر القارات الأخرى للعرب كبير جدا · وكان يجب على أوربا أن تعترف بهذا الصنيع منذ زمن بعيد· ولكن التعصب واختلاف العقائد أعمى عيوننا وترك عليها غشاوة ، حتى أننا نقرأ ثمانية وتسعين كتابا من مائة ، فلا نجد فيها اشارة الى فضل العرب وما أسدوه الينا من علم ومعرفة ، اللهم الا هذه الاشارة العابرة الى دور العرب ، لا يتعدى دور ساعى البريد · الذى نقل اليهم التراث اليونانى » ·

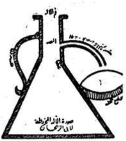
دكتورة سيجريد هونكه



الخوارزمى

حول هذا الموضوع خاصة ، دارت « مطالعات » المؤلف ، وقد احتواها ذلك الكتاب القيم ، وتناولتها فصوله « التى كتبت فى أوقات مختلفة وفى مناسبات شتى » · وهذه العبارة التى وردت فى المقدمة تشفع لتكرار بعض الآراء والجمل والفقرات الكاملة أحيانا ـ (ص ٥ ، ٢٧٧ ـ ص ٥ ، ٢٧٨ ـ ص ٦ ، ١٢٦ ، ٢٧٨ ·· والفصلان الأول والأخير بصورة عامة يوجزان بعض ما ورد فى ثنايا الفصول الأخرى) ·

ان الثقافة الغربية المعاصرة ـ نتيجة عوامل سياسية واقتصادية وحضارية شتى ـ تكاد تفرض نفسها على كل الأمم والشعوب · واذا كانت التيارات الثقافية والفكرية تلتقى وتتلاحم أو تتفاعل فيما بينها ، فان الأصول الأساسية والجذور الأولى لتلك التيارات لا تنشأ من العدم أو تولد بلا نسب · حقا انها تصدر عن مجتمع بشرى معين ، وتحمل سماتة وقسماته ،ولكنها فى البدء والمنتهى حلقة من سلسلة تتصل بما قبلها ، وهى ركيزة لما



بعدها • ولقد أتى على الحضارة الانسانية والفكر الإنساني حين من الدهر ، كان للعلماء العرب فيه مكان الصدارة ، لما حملوه بين أيديهم من مصابيح العلم ونور المعرفة • وعلى هدى نورهم سارت أوربا لقرون وقرون • ولكن الحقد الأسود ، والمغالطة المدفوعة بعوامل التعصب الأحمق ، والعنصرية التي تطمس الحق ، والاستعمار الذى يمحق القيم ، جعلت كثيرين من مؤرخى العلم يصرون على تاريخ العلم بعصرين لاثالث لهما : وهما العصر الاغريقى ، وعصر النهضة الأوربية الحديثة • الا أن بعض المؤرخين المنصفين — وقليل ماهم — يعترفون بانه لولا أعمال العلماء العرب لاضطر علماء النهضة الأوربية ، أن يبدأوا من حيث بدأ هؤلاء ، ولتأخر سير المدنية عدة قرون •

وتفاصيل الموضوع كما ترى ، أكبر من أن يحتويها كتاب أو عدة مجلدات، يتوفر لها طائفة من الباحثين والعلماء المتخصصين • وقد أحسن المؤلف صنعا اذ فتح باب البحث العلمى المنظم أمام هذا العمل الضخم ، وتناوله ككل واحد جدير بالعرض والتحليل ، وقد سار بنا فى رحلة عبر الأجيال والقرون ، يشير الى علامات على الطريق ، ويضيع على أكتاف أبناء جيلنا الثائر المستنير أمانة انصاف أمتنا العربية « بأن تعمل الدولة على نشر هذا التراث العلمىالعربى العظيم، تنشره محققا ومخلصا ، حتى يعلم الشباب من أمة العرب مكانة أمتهم فى التاريخ » •

◆ العلم والطريقة العلمية

كانت كلمة « علم » تطلق قديما على المعارف العامة • ولكن الاستعمال الحديث للكلمة حدد مدلولها وجعلها تختص بلون معين من المعارف هو الذى يتضمن التجربة والمشاهدة والاختبار ، وقد تعددت العلوم وتشعبت، حتىأصبح من المستحيل على عالم واحد أن يلم باطرافها أو يحذق فنونها • ومع نمو العقل البشرى وتدرجه مع خبراته الحضارية ، تطور التفكير العلمى ، وهو ينهج منهجا محددا واضحا ويلتزم بالطريقة العلمية التى تصنف المعارف ، وتوضح ما يربطها من صلات ، وتستنبط القوانين من المشاهدات والتجارب والملاحظات التى تسجل بعناية ودقة ، ثم تستقرىء منها النظريات والفروض والقوانين استقراء منطقيا وفقا لنتائجها • والعلم عملية متغيرة لا تعرف الثبات ، لأن صناعة المعرفة لا تقف عند حد • والنتائج العلمية متصل بعضها ببعض ، ومعتمد بعضها على بعض ، ومن هنا كانت أهمية دراسة العلم وتاريخه • وكما يقول أوجست كومت « ان تاريخ العلم هو العلم نفسه » •

◆ ومع ركب الحضارة ، يمضى المؤلف مبتدئنا بالحضارة المصرية القديمة • ولا شك أن هذه الحضارة الباهرة لم تنبثق من العدم ، بل سبقتها أو على الأقل عاصرتها حضارات اخرى كان يجب انصافا الاشارة — ولو بايجاز — اليها • وشواهد الآثار المصرية الوفيرة ما هى الا ثمار فكر علمى ، قطع على أرض مصر مرحلة كبيرة على طريق التقدم والحضارة فى الهندسة والتحنيط والصناعة المعدنية والنحت والتصوير والعمارة والطب والكيمياء والصيدلة « والمعتقد أن كلمة pharmacist وهى المرادفة لكلمة صيدلى فى العربية ، انما هى مشتقة من الكلمة الفرعونية القديمة فارماكى ، وتعنى تحضير الأدوية من العقاقير » •

◆ يحلو للبعض حين يؤرخ للعلم أن يتخذ من الاغريق البداية الحقيقية للتقدم العلمى بالمعنى الصحيح ، وأن ما سبقه عند الأشوريين والبابليين والمصريين القدمان كان خبرات ومهارات مارسها المشتغلون بالعلم ، ولعلها كانت تمارس خفية • فقد اتسم العلم فى تلك الأيام بميسم الكهانة والسحر، يمارسه الكهان ورجال الدين ، يعكفون عليه فى صوامعهم وهياكلهم •

وفى ذلك نضيف قول الاستاذ العقاد رحمه الله « فالبلاد التى تجرى فيها الأنهار الكبيرة تقوم عليها الدول المتمكنة ، وتقوم معها الى جانب الدولة الحاكمة دولة دينية من الكهان ورؤساء الدين يسيطرون على شئون العقيدة ومباحث الفكر فى أسرار الطبيعة وما وراءها من الغيب المجهولة • وعلى هذه السنة قامت كهانات الهند مابين النهرين ووادى النيل •• ولم تكن فى اليونان دولة متمكنة ولا كهانة ذات سيطرة على دولتها الصغيرة ، فاتسع أمامهم مجال البحث غير متحرجين فيه ولا محاسبين عليه ، وعمدوا الى العلوم التى استفادوها من الشرق ، فقالوا فيها ما يقوله كل باحث منطلق اللسان يتحدث بما يشاء وكما يشاء » أ•هـ•

والمعتقد أن طاليس هو أول العلماء الاغريق الذين عرفت آثارهم العلمية حين ظهرت فى القرن السابع ق•م• فى مليطه • وكانت الحروف الهجائية قد انتقلت الى الاغريق من الفينيقيين قبل ذلك بقرنين (وهى فى الأصل تعود الى الابجدية العربية التى تدل عليها الفاظ حروفها واشكالها ومعانيها) • وفى

القرن السادس ق.م ظهر أبو قراط الملقب بأبي الطب . ثم أفلاطون وأرسطو في القرن الرابع ق.م. وكان أفلاطون يعتقد أن دراسة الرياضيات وخاصة الهندسة هي مفتاح الدراسات الأخرى ، ومن رأيه أن العقلية الرياضية قادرة على تفهم العلوم الأخرى وقد انشأ أفلاطون الاكاديمية التي تنسب اليه ، ولعلها أول جمعية علمية بالمعنى الصحيح . وتنسب الى موضع ظليل يسمى « أكاديما » في الشمال الغربي من أثينا . كان يلتقي فيها بطلابه ومريديه ليحاورهم ويعلمهم العلم والفلسفة والحكمة ، وما زالت هذه الكلمة تطلق حتى اليوم على الجمعيات المتخصصة التي تعمل على تقدم العلوم والفنون والآداب والتي تتميز بالطابع العلمي البحت . أما تلميذه أرسطو فقد هجر أثينا بعد وفاة أستاذه ، وأنشأ « الليسيوم » وهو المكان الذي كان يلقى فيه تلاميذه ومريديه ليعلمهم الفلسفة والحكمة . واليوم تطلق كلمة « ليسيوم » على دور العلم والفلسفة في بعض البلدان ، ويطلق الفرنسيون على المعاهد الثانوية الممتازة التي تشرف عليها الدولة كلمة « ليسيه » .

• بعد موت الاسكندر وأرسطو ، لعب الاضطهاد السياسي دوره في تفريق العلماء الاغريق وهجرتهم ، وانتقل عدد كبير منهم الى الاسكندرية . وفيها وجدوا أرضا خصبة لأبحاثهم ومعارفهم في عهد البطالمة الذين أحبوا العلم وكرموا العلماء . وأنشئت جامعة الاسكندرية ومكتبتها في القرن الثالث ق.م فكانت منارة للعلم لعدة قرون. ومن أشهر علمائها ارشميدس ، وبطليموس الفلكي ، وأقليدس . ويلقبونه بأبي الهندسة وهو يمثل عصر النهضة العلمية بالاسكندرية ، وأيضا هيرون أول من نادى بنظرية الصواريخ ، وجالينوس وتلقبه العرب بالفاضل ، وديسقوريدوس النباتي الأشهر ، وثاون وابنته هو باتيا .

ثم ساد اضطهاد ديني بين المسيحيين والوثنيين ، فهاجر العلماء مرة أخرى. اتجهوا نحو الشرق. وكان نور الاسلام قد ظهر وسطع ، وسيطرت الحضارة العلمية الاسلامية . ومن الاسكندرية ، انتقلت منارات العلم الى بغداد — حاضرة الدولة العربية حينذاك — ومن بغداد امتد نور العلم نحو الحواضر العربية في دمشق والقاهرة والقيروان وقرطبة . وعن طريق الاندلس ، انتقل العلم الى أوربا ، وانشئت الجامعات والمعاهد العلمية في عصر النهضة ، وبذلك تم أعظم دور في تاريخ العلم .

وقد شهد عام ٥٢٩ اغلاق الاكاديمية التي كانت مركزا لمقاومة الديانة المسيحية الجديدة في الاسكندرية ، وهاجر علماؤها الى بلاط الملك الفارس خسرو. وكانت الامبراطورية البيزنطية قد تمزقت ماديا وروحيا ، وتهيأت الأسباب للفتوحات العربية والاسلامية « ويدلنا التطور التاريخي على أن عدم التسامح والاضطهاد ينقلبان على مرتكبيهما ، فقد دفعا كثيرا من خيرة الناس الى الشعور بالاستياء والتبرم أو حكم عليهم بالنفي ، فحمل اللاجئون العلم اليوناني الى الشرق ، فأسهم في اعداد الأسلحة العقلية والعلمية للغزو العربي . ان حب المعرفة وطلب الحقيقة شيئان لا يمكن القضاء عليهما أبدا ، وأقصى ما يستطيعه الاضطهاد أن يقصى الذين لا يسيرون في الطريق المرسوم، وهذا في النهاية خسارة لوطن المضطهدين ، وليس خسرانا للانسانية، فاللاجئون يحملون معهم الحكمة والمعرفة من مكان الى آخر ، وتمضي الانسانية في طريقها » .

ومن الحق أن نذكر بالشكر والفخر، أولئك الذين حفظوا ونقلوا الينا التراث العلمي العظيم لليونان والبطالمة وهم علماء العرب .

• أشرق على الدنيا فجر الاسلام ، ليخرج الناس كافة من الظلمات الى النور ، ويكرم العلم والعلماء ، ويرفع منازلهم درجات . ولأمر ما ، كان أول ما جاء به الوحي من القرآن الكريم : « اقرأ باسم ربك الذي خلق » ، ويقول نبي الاسلام : « يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدماء الشهداء » .

ومنذ البداية ، اتخذت المساجد الاسلامية أماكن للعلم ، اذ كانت تعقد بها الحلقات . كذلك فتح الخلفاء والأمراء وكبار العلماء قصورهم وبيوتهم لطلاب العلم ورواده ، يقيمون الندوات ويعقدون المناظرات، ويشرحون ويفسرون ويعلمون ويتعلمون ، ومن بين ما ناقشوه وتدارسوه آراء سقراط وأفلاطون. لذلك ارتبط تاريخ هذه الندوات والمجالس العلمية والجمعيات الاسلامية بتاريخ قصور الخلفاء منذ معاوية ، وازدهرت في عصر عبد الملك ابن مروان والوليد بن عبد الملك بدمشق ، وفي عهد الرشيد والمأمون في بغداد ، وفي قصور الطولونيين والاخشيديين والفاطميين والأيوبيين والمماليك في مصر ، وفي قصور أمراء المغرب والأندلس . وقد أثرى العلماء العرب المكتبة العربية بكتب التراجم



ابن سيناء

التى يقول عنها « فون جرونيباوم » : ان مجموعة كتب التراجم التى أنتجها العلماء المسلمون ، لشىء يدعو الى الدهشة والاعجاب لكثرتها ودقتها ، وما جمعته من مادة رائعة ، وأن علماء الغرب فى العصور الوسطى ليس لديهم ما يقارن بنتائج معاصريهم من العرب فى هذا الميدان ·

ان كتب التراجم تمثل جانبا غنيا فى الحياة العلمية الاسلامية · وهى منظمة تنظيما دقيقا فى الطلب والأدب والشعر والفقه والعلوم والرياضيات والفلسفة ·· الخ ·

زادت حلقات العلم بالمساجد والقصور واتسعت ، فانشئت المدارس ، وكانت قاصرة فى أول عهدها على تعليم العلوم الدينية ، ثم دخلتها علوم الدنيا كالطب · وكان بمدرسة المستنصر ايوان فسيح يشبه قاعة المحاضرات لتدريس الطب ، وبالمدرسة أيضا مساكن للأساتذة والطلاب ، وقاعة للعام ومطبخ وحمامات ، فهى أشبه بالمدينة الجامعية، وكذلك نشأت المدارس النظامية فى العراق وسورية ومصر ، وأغدق عليها الأمراء والأميرات والتجار· وهناك أيضا المكتبات ، وكان لها دور فى نشر العلم وصيانته فى آن واحد · كان لها مهمة تختلف عما توحى به الكلمة اليوم · فقبل اختراع الطباعة، كانت الكتب مخطوطات غالية الثمن ، فحرص الأغنياء والقادرون على جمعها فى مكتبات تفتح للراغبين وطلاب العلم، كما فعل البطالمة فى مكتبة الاسكندرية، وفعل العباسيون فى بيت الحكمة ببغداد ، والفاطميون فى دار الحكمة بالقاهرة ، وفى بخارى والأندلس · « وقد اهتم المسلمون بأبنية المكتبات العامة التى كانت تعد لاستقبال الجماهير ، وكان البناء مزودا بحجرات متعددة تربطها بينها أروقة فسيحة ، وكان الرفوف تثبت بجوار الجدران لتوضع فيها الكتب ، وبعض الأرفف كان يخصص للاطلاع كما كانت تخصص بعض الحجرات للنسخ ، وبعضها لحلقات الدراسة ، وانتظمت بعض المكتبات كذلك حجرات للموسيقى يلجأ اليها المطلعون للترفيه وتجديد النشاط · وكانت جميع الحجرات مؤثثة تأثيثا فخما مريحا » ويصف المقريزى دار الحكمة بالقاهرة وعمارتها وفخامتها وتنسيقها ويذكر انها كانت تضم أربعين خزانة فى سائر العلوم ، تتسع كل خزانة لنحو ١٨٫٠٠٠ كتاب ، وجميعها فى متناول المترددين على المكتبة ·

كان يتولى أمور هذه المكتبات علماء ممتازون، وبها أيضا القوام والمترجمون والنساخ · وقد لعبت الترجمة دورا كبيرا فى تلك النهضة العلمية العارمة التى ازدهرت فى العصور الاسلامية الأولى والمتوسطة · وكانت الترجمة قاصرة فى البداية على الدراسات الدينية واللغوية ، ثم أصبحت الترجمة حلقة الاتصال بين العرب وعلوم اليونان والسريان والأقباط والفرس والهنود ، ونقلت آثارهم العلمية الى اللغة العربية · ويقال ان خالد بن زيد (٨٥ هـ) أول من عرفت له مكتبة فى الاسلام، فقد عنى باخراج كتب القدماء، وأحضر جماعة من فلاسفة اليونان وأمرهم بنقل كتب الطب والنجوم والكيمياء الى اللغة العربية · وبلغت حركة الترجمة أوجها فى عهد الرشيد·

• واذا كان الاسلام قد حث على العلم وبارك السعى اليه ، ووضع المتفقه فيه والمنقطع له فى موضع القائم على حدود الله مقاتلا مجاهدا ، فقد حظى العلماء بمكان الصدارة عند عامة المسلمين وخاصتهم · ومن بين هؤلاء العلماء من كان مسموع الكلمة ، مهيب الجناح ، يتضاءل أمامه سلطان ملوك وحكام وأمراء · ومنهم من رفض الجاه والمنصب ولو كان الامارة والسلطان ، ومنهم من عاش زاهدا فى كل نعيم الدنيا ومتعها منقطعا للعلم ولو أراد لسالت خزائن الثروة بين يديه · يقال ان والى المدينة تهيب أن يمشى الى الامام مالك ليقدم اليه الامام الشافعى قائلا : مشيى من جوف المدينة الى جوف مكة حافيا راجلا أهون على من المشى الى باب مالك · ويذكر أنه لما أتم البيرونى كتابه « القانون المسعودى » أرسل اليه السلطان ثلاثة جمال محملة بالفضة ، فردها البيرونى قائلا انه يخدم العلم للعلم لا للمال ·

وكان للعلماء مراتب ، يعين كبيرهم صغيرهم ، فهناك الشيوخ ، وهم بمثابة الاساتذة بالجامعات اليوم ، وهناك المدرسون ، ثم المعيدون الذين يعيدون الدرس بعد أن يفرغ الشيخ من القائه. وفى مطلع القرن الهجرى عرفت الاجازات أو الشهادات، تعطى للطالب بعد اتمامه لكتاب معين أو موضوع معين · وكان يشترط لمن يشتغل بالطب أن يجتاز امتحانا ، وينال شهادة مكتوبة تحدد له الأمراض التى يمكن أن يتصدى لها ·

وفى المدارس والكتاتيب عرفت العقوبات وأبيحت أيضا المكافآت والجوائز · وتتدرج العقوبات من العتب الى التوبيخ الى الضرب· أورد ابن خلدون أن الأمين ـ وهو غلام ـ شكا معلمه ـ الأحمر ـ الى أبيه ، فسأل الرشيد فى ذلك فقال المعلم « غلبنى خبثا





وعرامة » . فقال الرشيد « اقتله . فلان يموت خير من أن يموق » .

وفى المساجد أو المدارس الكبرى ـ كالأزهر ـ كان يجتمع طلاب العلم من شتى البلدان والأمصار ، وقد حدد رواق خاص لكل قطر ، ويتلقى الطلاب دروسهم على شيوخ أجلاء . وليس التعليم بالمجان وحسب ، بل ان الطلاب يتلقون جرايات وأطعمة . يقول « لين » : ان الأزهر مثال نموذجى لمجانية التعليم ، لجميع الطلاب على اختلاف جنسياتهم ولغاتهم ، من غير تمييز لعنصر أو طبقة . وفى العهد الأيوبى كان كل تلميذ بمصر يجد مسكنا يأوى اليه ، ومدرسا يعلمه ، وراتبا يقوم بجميع أحواله .

• ومنذ فجر الاسلام عرفت البعثات العلمية التى نفهمها اليوم . فانتشار الاسلام ـ كدعوة عالمية انسانية لاتعرف العصبية لمجتمع أو جنس أو لون أو أرض ـ كان لا بد أن يلازمه انتشار فى المعرفة الاسلامية . فمنذ البداية، تفرق علماء الصحابة فى الأقطار ، أقام كل منهم مركزا علميا فى البلد الذى حل فيه ، فحلقة فى اليمن ، وثانية فى الكوفة ، وثالثة فى مصر ، ورابعة فى البصرة ، وخامسة فى المدينة ، وسادسة فى الشام وهكذا . وأصبح لكل مدرسة من هذه المراكز طابعها المميز ، وبتوالى الأيام والأجيال، تتطور هذه المدارس وتنمو وتتسع ، وتخرج أفواجا من العلماء والرواد والمتخصصين .

وفى سبيل العلم ، سعى الطلاب ورحلوا عبر القارات وصنعوا برحلاتهم قصصا تشبه الاساطير . فمنهم من قطع آلاف الاميال على ظهر بعير ، ومنهم من لم يكن يملك سوى قدميه فسار راجلا . وقد رحل البخارى فى جمع الأحاديث النبوية ستة عشر عاما. ورحلة البيرونى فى الهند استغرقت أربعين عاما ، ظل يطوف بين أرجائها ويدرس لغاتها وعاداتها وتاريخها وجغرافيتها .

وحين نتحدث عن الحركة العلمية الأسلامية ، لا بد من الاشارة الى أقدم جمعية علمية عربية بالمعنى المعروف وهى جماعة اخوان الصفا التى نشأت بالبصرة فى القرن الرابع الهجرى وكان لها فرع فى بغداد . اشتهر اعضاؤها بالآراء العلمية الحرة، واتخذوا لأنفسهم مذهبا وقالوا انه متى انتظمت الفلسفة لاجتهادية اليونانية والشريعة العربية الاسلامية ، فقد حصل الكمال .

ويقول المستشرق « دى بور » لقد فلحت الحكمة اليونانية فى أن تستوطن لشرق عن طريق اخوان الصفا . ومن مبادئهم ألا يعادوا علما من العلوم أو يهجروا كتابا من الكتب وألا يتعصبوا لمذهب من المذاهب ، وأن يجمعوا العلوم جميعا ، وينظروا فى الموجودات بأسرها . وكانت اجتماعاتهم خاصة لا يحضرها سوى الأعضاء ، لكنهم أذاعوا رسائلهم ونشروها بين الناس حتى بلغت الأندلس ، وتبلغ ٥٢ رسالة تشتمل على أبحاث ودراسات فى جميع العلوم والمعارف ، ثم رسالة جامعة . وهى كما يعتقد دى بور أشبه بدائرة معارف لاشتمالها على خلاصة ماانتهت اليه علوم الأقدمين وعقائدهم ، وأضافوا اليها ، ملتزمين الطريقة العلمية البحته ، من حيث جمع الحقائق وترتيبها واستقراء النتائج وبحث الماهية والتركيب .

• فى هذه الحقبة المزدهرة ، كان للعلماء العرب الكلمة المسموعة ، والرأى السديد ، والقول الفصل فى كل مجالات العلم والمعرفة . وأضحت اللغة العربية يوما هى اللغة العلمية العالمية لا تكاد كتب العلوم تنشر الا بها ـ ثم غفا العرب فترة ـ وسنة الحياة أن يغفو البشر ـ وصحا الغرب على أنوار المشرق ، فلما اشتد ساعده حاول عصبية وحقدا أن يطمس الحقيقة ويبخس العرب أشياءهم . فمثلا هللت أوربا فى عصر نهضتها لآراء كانط وديكارت ونيوتن فى الطبيعة والانكسار والضوء والابصار وغيرها ، وقد ثبت فيما بعد أنها ـ أو أغلبها ـ مأخوذة عن ابن الهيثم العالم العربى المصرى. وهلل الغرب لهارفى وقال انه مكتشف الدورة الدموية مع أن مكتشفها الأصلى هو ابن النفيس الطبيب المصرى الشهير الذى كان مديرا لمستشفى قلاوون بالقاهرة ، وهللت أوربا لآراء داروين ولامارك فى التطور ، وقد ذكرها اخوان



البيرونى

الصفا فى رسائلهم وذكرها أيضا ابن مسكوية فى كتبه • وما نادى به لامارك من أثر الطبيعة والبيئة على الأحياء سبقه اليه ابن خلدون حيث قال ان العادة قد تغير من صفات العضويات كمايغير الطقس وفسر ذلك، وما أورده الجاحظ وابن سينا من ملاحظات كثيرة فى التطور والارتقاء نسبها الغرب الى علمائه وأغفل فضل العرب وسبقهم • وقبل كبلر وجاليليو وكوبرنيق ، وضع العلماء العرب علم حساب المثلثات بطريقة منظمة واعتبر علما عربيا ، ووضعوا الأزياج ، وعملوا الأرصاد وأقاموا المراصد ، وقدروا أبعاد بعض النجوم والكواكب ، وقالوا باستدارة الأرض وقاسوا محيطها ، وحسبوا طول السنة الشمسية ، ورصدوا الاعتدالين ، وحسبوا طول السنة الشمسية ، وكتبوا عن البقع الشمسية وعن الكسوف والخسوف ، ووضعوا أسماء كثير من الكواكب ما زالت تستعمل حتى اليوم مثل الدب الأكبر والدب الأصغر والحوت والعقرب ، وانتقدوا علميا كتاب « المجسطى » أشهر كتب بطليموس فى الفلك ، الى جانب اضافات العلماء العرب فى الطب والتشريح والكيمياء والمعادن والنبات والحيوان •

ولقد عرف العلماء العرب فى أسلوبهم وتفكيرهم ما يسمى بالطريقة العلمية قبل أن يولد «باكون» الذى يزعمون أنه مبتكر هذه الطريقة، فقد تميز تفكيرهم وأسلوبهم العلمى بالدقة فى البحث ، والوضوح فى العرض ، والسلامة فى الاستنتاج • وبين أيدينا كتب الخوارزمي والبيرونى والجاحظ وابن بدر وابن النديم والفارابى وابن سينا وابن رشد ورسائل اخوان الصفا وغيرهم ••• يقول درابر « لقد كان تفوق العرب فى العلوم ناشئا عن الأسلوب الذى توخوه فى بحوثهم » •

• ثم يورد المؤلف بعد ذلك نماذج مفصلة من ابتكارات واضافات العلماء العرب فى الرياضيات والهندسة والفلك والطب والكيمياء والصيدلة وعلوم الحياة • ثم ينتقل بعد ذلك الى الاشارة الموجزة لبعض كبار العلماء العرب ، ومنهم :

- ابن سينا (٣٧١ هـ ـ ٤٢٨) وهو المعلم الثالث للانسانية بعد أرسطو والفارابى •
- ابن الهيثم (٣٥٤ ـ ٤٣٠) أحد الثلاثة الأفذاذ من علماء العرب : ابن سينا ـ ابن الهيثم ـ البيرونى
- (البيرونى ٣٥١ـ ٤٤٠ هـ) يقول عنه « سخاو » انه من أضخم العقول التى ظهرت فى العالم • ألف فى الرياضة والفلك والصيدلة والجواهر •
- جابر بن حيان (١٢٠ ـ ٢١٠ هـ) ظلت كتبه فى الكيمياء المرجع الأوفى زهاء ألف عام •
- الخوارزمى (ت ٢٣٢ هـ) أول من ألف فى الجبر وأول من وضع كتابا فى الحساب •
- الكندى (١٨٥ ـ ٢٥٢) ألف فى الفلسفة والفلك والحساب والهندسة والطب والطبيعات والموسيقى والنفس والمنطق والأدوية والمعادن والجواهر •
- موسى بن شاكر (فى عصر المأمون) نبغ هو وأبناؤه الثلاثة فى الرياضيات والفلك والفلسفة •
- ثابت بن قره (٢٢١ ـ ٢٢٨) نبغ وألف فى الطب والرياضيات والفلك والفلسفة ـ استخرج حركة الشمس وحسب طول السنة الشمسية فكانت اكثر من الحقيقة بنصف ثانية فقط •
- أبو بكر الرازى (٢٤٠ ـ ٣٢٠) من أعظم أطباء القرون الوسطى وحجة الطب فى أوربا حتى القرن ١٧ •
- الصوفى (٢٩١ ـ ٣٧٦) من أعظم فلكي الاسلام ، واعتبره البعض نقطة تحول من عصر بطليموس الى عصر الصوفى ثم الى العصر الحاضر•
- البوزجانى (٣٢٨ ـ ٣٨٨) من كبار علماء بغداد ومن أئمة علماء الفلك والرياضة والهندسة •
- المجريطى (٩٥٠م) أمام الرياضيين فى الاندلس ومن أشهر علماء الفلك فى عصره •

- ابن يونس (٣٩٩ هـ) عاش بمصر وبرع فى الرياضيات والفلك وحساب المثلثات • رصد كسوف الشمس وخسوف القمر • وسبق جاليليو بعدة قرون ، فى اختراع البندول ومهد لاكتشاف اللوغاريتمات •
- الخازن (النصف الأول للقرن ١٢م) اشتهر ببحوثه فى الرياضيات خاصة الميكانيكا والطبيعة والفلك سبق تورشيللى فى الاشارة الى مادة الهواء ووزنه ، ومهدت دراساته لاختراع البارومتر ومفرغات الهواء والمضخات • تحدث عن الجاذبية وقوانينها قبل جاليليو بخمسة قرون •
- ابن البيطار (٥٧٥ ـ ٦٤٦ هـ) من أشهر علماء الأندلس ويلقب بامام النباتيين وعلماء الأعشاب•
- داود الأنطاكى (القرن العاشر الهجرى) يلقبونه بالحكيم الفريد، والطبيب الحاذق الوحيد ، أبوقراط زمانه •
- البغدادى (٥٥٧ ـ ٦٢٩ هـ) من كبار علماء النبات والطب واللغة والأدب ، وفوق ذلك من اشهر الرحالة ، عنى بوصف مصر فى فترة من أزهى عصورها وأغناها بالأحداث ، فى عصر صلاح الدين•
- ابن النفيس (٦٠٧ ـ ٦٩٦ هـ) مكتشف الحركة الدموية وأول من فطن الى وجود أوعية داخل عضلات القلب ، وأول من وصف الشريان الاكليكى وفروعه ، وأول من اشار الى مرور الدم فى الأوعية الشعرية •
- القزوينى (٦٠٥ ـ ٦٨٢ هـ) صاحب كتاب عجائب المخلوقات ومن أشهر الذين ألفوا فى التاريخ الطبيعى والجغرافيا والتراجم •
- البتانى (٢٤٠ ـ ٣١٧ هـ) من أشهر الفلكيين العرب •

ثم يورد المؤلف بعد ذلك نماذج من أشهر الكتب التى ألفها هؤلاء الاعلام وغيرهم •



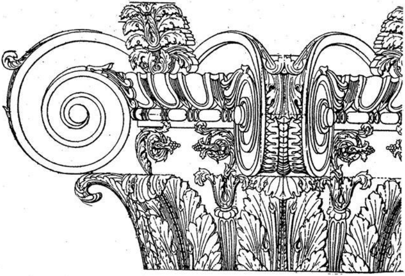
• بدأت أوربا تستيقظ فى الوقت الذى أخذت فيه شمس الحضارة العلمية العربية تميل الى الغروب (القرن ١٣) واذ أحست أوربا بعجزها وتخلفها ، لجأت الى منابع المعرفة العربية تنهل منها وتستقى • لجأت الى الترجمة النشيطة للعلوم العربية الى اللاتينية ، ثم الأسفار والرحلات الى بلاد الشرق، ثم حركات التجارة مع المشرق وما تبع ذلك من استكشافات جغرافية جديدة على أوربا ، فتحت لأبنائها آفاقا خصبة رائعة للمعرفة وللاتصال بحضارات وفنون وتراث • ومن الرواد الذين كان لهم أثر فى انهاض الفكر العلمى الأوربى ودعوا الى اتباع المنهج الاستقرائى : روبرت جروست (١٢٥٠) وألبرت ماجنوس (١٢٨٠) وروجر باكون (١٢٩٤)• ثم امتزج الفن بعلوم الحياة على يد بوتشللى ودافنشى •

ثم كان اختراع الطباعة فى منتصف القرن ١٥ وأثره البارع فى دفع عجلة النهضة الأوربية ونشر المعارف العربية والاغريقية ،فى مجالات التعليم الجامعات • وكذلك نشطت حركة التجديد والتأليف فى العلم والفن فى كل أوربا • ومع مطلع القرن ١٧ بدأ عصر النهضة العلمية الحقيقية الأوربية، القائمة على التفكير العلمى الاستقرائى المجرد • وحمل اللواء فى تلك الحقبة خمسة من الأعلام : فرانسيس باكون (١٥٦١ ـ ١٦٣٩) ، فابرك بيرسك (١٥٨٠ ـ ١٦٣٧) ، مارين ميرسى (١٥٨٨ ـ ١٦٤٨) ، بيرجاسندى (١٥٩٢ ـ ١٦٥٥) ، وعلى رأسهم جميعا رينيه ديكارت (١٥٩٠ ـ ١٦٥٠) وبهؤلاء دخل العلم عصره الحديث ، ووثب التفكير العلمى وثبة بازغة نحو التقدم والتحرر والازدهار • ومن العسير أن نتتبع كل السلسلة الذهبية التى تنتظم جميع العلماء والرواد ، وتكفى الاشارة الى الأفذاذ فهم أمثال : كوبرنيكس ـ برونو ـ جاليليو ـ كبلر ـ ليفنهوك ـ نيوتن ـ كوفييه ـ موللر ـ داروين ـ كوخ ـ كللفن ـ باستير ـ لافوازييه ••

والى باكون وديكارت يرجع فضل تكوين الجمعيات والأكاديميات العلمية التى أثرت الحركة العلمية ونسقت البحوث ونظمت الجهود وركزت التخصص حتى تؤتى الابحاث والدراسات الجادة ثمارها • وظهرت وانتشرت المتاحف العلمية ، والمجلات العلمية المتخصصة ، والاجهزة الآلية ومن أهمها المجهر ، وقد ساعدت جميعها على تقدم الابحاث ونشر المعارف والعلوم، بجانب المعاهد والجامعات •

• والى عصر الذرة والأقمار الصناعية وسفن الفضاء تمضى الحياة فى مرحلة يشكل فيها العلم حياة الرجل والمرأة والطفل ، ويساهم فى تطوره أبناء الجيل فى كل بقعة من الارض تشرق عليها الشمس أو تغيب • ولئن كان للعلماء العرب فضل فى تاريخ العلم وتقدمه فى المرحلة المتوسطة بين عصر الاغريق والعصر الحديث، فلسوف يبعث من جديد مجدهم ، ويعلو باذن الله شأنهم ، فقد نهضوا واستفاقوا بعد غفوة طال عليها الأمد • والعربى قد يغفوا ولكنه أبدا لا ينام •

فؤاد شاكر



حضارة روما

ان دراسة تاريخ الحضارة من أشق المهام العلمية ، كما هو معروف · فالباحث حينما يتجه فى هذه الدراسة لا يجد سوى المصادر التى يتاح له الاطلاع عليها ، وهذه كتبت تارة بالبحث فى الآثار المتخلفة عن حياة الشعوب ، وأخرى بالالتفات الى ما تواتر عن ثقافتها وعاداتها · فهى لذلك لا تعطى صورة واضحة المعالم مترابطة التسلسل ·

ومع ان حياة الشعوب تبدأ دائما فى حدود ضيقة ثم تتسع تدريجيا فان القارىء حينما يتناول كتابا فى التاريخ الحضارى يتصور أن المؤلف كان متابعا حياة الشعب الذى كتب عنه من البداية الى النهاية ، فهو لذلك لا يغتفر له خطأ ولا يعترف بصعوبة ·

وحقا ان دراسة تاريخ الرومان قد تكون أسهل على الكاتب الأوربى من دراسة تاريخ آخر ، كتاريخ مصر ، غير أن هذه السهولة لا تخفف كثيرا من العناء الذى يلقاه من تعرض لدراسة تاريخ حضارة شقت أضواؤها من كوخ صغير قام على قمة « تل البلاتين » — كما تقول الأقصوصة المتواترة عن منشىء المدينة — ثم اتسعت فشملت يوما أكثر بقاع العالم ·

وحينما نفكر فى معنى الحضارة فاننا لابد أن نواجه مثل هذا السؤال : فهل هى تعنى تطوير وسائل معيشة الانسان وحسب ، أم تطوير شخصيته بالدرجة الأولى ؟ ربما قيل ان تطوير الوسائل يؤدى الى تطوير الشخصية · وهذا صحيح اذا توفر من الوقت مايكفى للالتفات الى الشخصية الانسانية بدرجة تعين على ذلك ، وهو مالم يتأت للحضارة الرومانية ، كما هو ثابت · اذ أن أمدها لا يزيد كثيرا عن ألف عام اذا اعتبرنا نهايتها فى سقوط الامبراطورية ، ولا يزيد كثيرا عن ألفين اذا اعتبرنا تأثيرها باقيا الى اليوم ·

وثمة أمر آخر لا يقل أهمية ، فقد قامت



١

بقلم : عبداللطيف محمد الدمياطي

الحضارة المصرية على أساس من الاعتقاد وباستمرار الحياة خارج نطاق هذا العالم المادى ، وأيا ما كانت هذه الفكرة فى نظر العلم فقد رسخت فى الأذهان وكان لها صدى فى البلاد الأخرى ، ومنها روما نفسها ٠ وكان من نتيجة ذلك أن تحول الناس تدريجيا عن العبادة الوثنية الى الاعتقاد بوجود قوة عظمى تسيطر على الكون ٠ فكان أن حاول الانسان دائما أن يحسن من سلوكه حتى لا يحل عليه غضب هذه القـوة التى اعتقد أنها تتحكم فى مصيره ٠ وكذلك قامت الحضارة اليـونانية على نهج من التعمق الفكرى عنى فيه بالتفسير لظواهر الكون ، وقد أفاد هذا أيضا الى حد كبير ٠

أما الحضارة الرومانية فانها لم تكن كذلك ، بل تكونت من مزيج جـاء بعضه من الحضـارة اليونانية نفسها والبعض من حضارات الشرق ٠ فهى لذلك لم تكن حضارة قامت على أسس من التفكير الهادىء ، المتحرر من سيطرة الامبراطورية الرومانية وآمالها ٠

ومع أن الحضـارة الرومانية قد جاءت هكذا وليدة الغزوات وربيبة الفتوحات فانها استطاعت أن تتخذ صفة الحضارة العريقة فى العالم الغربى، وذلك بالرغم من أنها لم تلتزم نهجا ولم تتجه الى غرض ٠ أما السبب فهو أن البلاد الأوربية ، وقد خضعت من قبل كلها تقريبا للحكم الرومانى ، كان لابد أن تتأثر بالأفكار الرومانية الى حد كبير٠ وحتى فى العصور الوسطى لم تكن تلك البلاد بلغت شأوا كبيرا فى الحضارة ، بل كانت لاتزال تستمد من المعارف الرومانية وتستعمل اللغـة اللاتينية باعتقاد أنها اللغة العلمية ٠ وهكذا اعتقد الأوربيون طويلا أن الحضـــارة الرومانية هى حضارة العالم أجمع ٠ وقد قوى من هذا الاعتقاد قيام المركز العالمى للمسيحية فى روما ٠ فبما أن « المدينة الخالدة » كانت حاضرة العالم فى الماضى فهى لابد أن تكون كذلك دائما ٠

وحينما قامت النهضة الأوربية كان من الطبيعى أن تصبح رومـا قبلة الأنظار باعتبارها مصدر المعارف التى أدت الى قيام تلك النهضة ٠ وقد

اد من هذا الاهتمام قيام حركة أدبية وفنية فى يطاليا نفسها ، وهو ما جعل الكثيرين يعتقدون بأصالة الحضارة الرومانية وشمولها .

ولقد اكتشفت القارة الأمريكية بواسطة أفراد يمتون بسبب الى الأصل الرومانى ، فكان من الطبيعى أن تنتقل المعارف الرومانية الى تلك القارة ، لاسيما بعد أن نزحت اليها جموع من ايطاليا ومن أسبانيا التى كانت يوما ولاية رومانية .

كل ذلك قد ساعد على تقوية الرأى القائل بوجود حضارة رومانية مستقلة ، لا تقل عراقة عن الحضارات الثلاث القديمة الأخرى . ولكن هاهو كتاب « حضارة روما » يعرض علينا تاريخ هذه الحضارة فى ترتيب علمى دقيق ، ويكشف لنا من الحقائق مالايسعنا بعد الاطلاع عليه الا أن نتساءل : هل كان للرومان حقا حضارة بالمعنى الذى وقر عنها فى الأذهان ، أم ان الأمر لم يكن سوى تنظيمات حدثت بأسباب الغزو ، وانشاءات قامت نتيجة للفتح ، ودساتير وضعت للاحتفاظ بالعظمة الرومانية ، وقوانين سنت لتحقيق الفكرة التى سيطرت على الرومان من البداية الى النهاية ، وهى أن يصبح الجنس الرومانى سيدا للعالم ؟

وحينما نطلع على كتاب « حضارة روما » نرى مابذله مؤلفه من جهد فى البحث وما تحمله من عناء فى الاستنتاج ، فهو لم يكتف بسرد الوقائع وعرض الأحداث بل عمد دائما الى التحليل والتعليل ، محاولا أن يستخلص الحقيقة طالما كان هناك بصيص منها . وقد وضع فى اعتباره تلك العوامل التى أشرنا اليها . ولم يفته أن أكثر من كتبوا فى تاريخ الرومان كانوا متأثرين غالبا بالوضع القائم أو بالأوضاع السابقة ، ولذلك لم



يكن مطمئنا الى رأيهم دائما ، بل كثيرا مانراه يستعرض الرأى ويبين مافيه من خطأ ، مشيرا الى ما أدى الى اخراجه من دوافع .

أما الجهد الذى بذله المترجمان الفاضلان فهو لا يحتاج الى بيان . فالمعروف ان الكاتب يتأثر بشعور بيئته الى حد كبير . ومهما حاول أن يكون منصفا فانه لايستطيع أن يتحرر من تأثير أو اخر ، لاسيما اذا مارأى أنه يكتب لبنى جلدته ، وهنا تأتى الصعوبة التى يواجهها المترجم ، فهو يحاول أن يستخلص الرأى الصحيح ، ولكنه يرى نفسه محكوما برأى المؤلف . ثم تأتى بعد ذلك صعوبة الاختلاف بين اللغات فى اللفظ والعبارة والمصطلح . فاذا ذكرنا أن الموضوع هنا هو حضارة الرومان ، وهم من اتسعت لغتهم وكثرت مصطلحاتهم ، وأن الكتاب قد ترجم عن الانجليزية التى لاتزال تعتمد على كثير من المصطلحات اللاتينية ، أدركنا ثقل المهمة التى اضطلع بها الاستاذان فاروق فريد وجميل يواقيم الذهبى حينما أقدما على ترجمة هذا الكتاب ، ومبلغ مساهمة المرحوم الدكتور محمد صقر خفاجه فى هذا العمل العلمى الكبير بمراجعة هذه الترجمة .

قسم المؤلف كتابه الى ثلاثة عشر فصلا وخاتمة ، أضاف اليها المترجم تذييلا بأسماء الأماكن وقاموسا للمصطلحات ، وسنحاول أن نستعرض هذه الفصول ، مكتفين بالاشارة الى أهم النقاط .

الفصل الأول ــ مقدمة

تكلم فيها المؤلف عن موقع روما وتاريخ انشائها ، وبعد أن أشار الى ما وصلت اليه من غنى وازدهار فى عام ٦٠٠ ق . م . تحت حكم ملكية أعتقد انها لم تكن فى أصل قومى قال ان هذه الملكية قد أطيح بها فى عام ٥٠٠ ق . م . لتخلفها جمهورية استطاعت فى عام ٢٧٢ ق.م. أن تسيطر على اتحاد كبير ضم كل شبه الجزيرة الايطالية جنوب « جنوا » . ثم قال انه كان من نتائج الحروب التى استغرقت المائة والخمسين عاما التى تلت ذلك أن أصبحت روما القوة الوحيدة فى عالم البحر المتوسط ، وأن حركة التوسع استمرت حتى وصلت أقصى حد لها أثناء حكم الامبراطور « تراجان » .

وبعد أن ذكر أن كل التراث الحضارى للعالم القديم قد أدمج فى تلك الامبراطورية العالمية الواسعة مضى يعلل لأسباب انهيارها على ضوء آراء من تكلموا فى ذلك ، فرآهــا فى الأعباء الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، وقال ان العالم الرومانى أصبح منذ عصر « أوغسطس » خاضعا لحكم ملكية مركزية قوية تحكمت فى كل موارد الدولة ، وأن القرون الثلاثة التى تلت حكم « ماركوس أوريليوس » كانت ســنى التدهور والانهيار ٠

ولقد أشار المؤلف بصورة خاصة الى ماخلفته روما من دساتير سياسية وقوانين ولغة ودين وأدب وفنون وأعمال أخرى ، باعتبارها جميعا جدارا ثابتا فى الحضارة الغربية قد لا يتحطم أبدا ٠

الفصل الثانى ـ « روما القديمة حتى عام ٥٠٠ ق٠م٠ » ٠

تكلم فيه ثانية عن انشاء المدينة على ضوء الروايات المتواترة رما يتصل بذلك من أساطير تتعلق بالطقوس الدينية وغيرها ٠ ثم تكلم عن النشــاط التجارى والصناعى وعن الزراعة والأسرة والديانة ٠ وبعــد أن أفاض فى ذلك انتقل الى النظام السياسى فتكلم عن « الملك » وطبقة الارستقراطية والشعب الرومانى ، ثم ختم هــذا الفصل بالاشارة الى الادب والفن فى مراحلهما الأولى ، وجاء بأمثلة فى اللغة اللاتينية القديمة ٠

الفصل الثالث ـ « رومــا وايطاليا حتى عام ٢٨٠ ق٠م » ٠

تكلم فيه عن المسألتين الهامتين اللتين شغلتا القــرنين الأولين من عهــد الجمهورية ، وهما : الصراع الطبقى بين الارستقراطية وعامة الشعب، وتوسيع السلطة الرومانية فى جميع أنحــاء ايطاليا ٠ ثم أشار الى الجيش الذى فتحت به روما ايطاليا من حيث جنسيته ، ولياقته ، وأجوره ، وأسلحته ، وتقسيمه ، وطرقه فى القتال ٠ وختم هذا الفصل بالاشــارة الى أن مســاحة ايطاليا الرومانية بلغت فى عــام ٢٦٠ ق٠م ٠ قــرابة ٥٢٠٠ ميل مربع ، وأن عدد سكانها بلغ أربعة ملايين نسمة ٠



الفصل الرابع ـ « روما والبحــر المتوسط (٢٨٠ ـ ١٣٣ ق٠م) » ٠

تكلم فيه عن سلسلة الحروب الرهيبة المعروفة باسم « الحــروب البونية » التى نشــبت مع قرطاجة ٠ وقال انها تركت فى عقول الرومان أثرا لا يمحى ٠ وبعد أن تكلم عن الدمار الكبير الذى أحدثته تلك الحروب فى جنوب ايطاليا مضى يستعرض الوضــع فى بلدان البحــر الأبيض المتوسط فى تلك الفترة التى ذكر أنها كانت أهم الفترات الحاسمة فى تاريخ الغرب ، فقال انه كان هناك ثلاث دول قوية خلفت امبراطورية الاسكندر الأكبر ، هى مقدونيا وسوريا ومصر ، وأن أيا من ملوك هذه الدول كان يستطيع أن يعتبر نفســه الوريث الشرعى للاســكندر ٠ غير أن هذا لم يحدث ، وانما كان احياء تلك الامبراطورية العالمية على يد رومــا نفســهــا ٠ ثم تكلم عن الطبقة الارستقراطية ومجلس الشيوخ ٠ وختم هــذا الفصل بالاشــارة الى ما حققته روما خــلال تلك الفترة من أعمال مجيدة فى مجال الأدب كانت متأثرة بالروح اليونانية بصورة تكاد تكون تامة٠

الفصل الخــامس ـ « تدهــور الجمهورية الرومانية وسقوطها : ١٣٣ ـ ٧٨ ق٠م » ٠

اســتهله المؤلف بقــول للمؤرخ اليونانى « بوليبيوس » ، وهو : ان استقرار الأحوال النابع من الدستور المختلط كان المأثرة الكبرى للجمهــورية الرومانية » ، ثم تكلم عن زعيمى الاصلاح الأخوين «تيبريوس وجايوس جراكوس» وعن « لجنة الاصلاح الزراعى » وعن « ماريوس »

وأشار الى الغـــزو الكبير الذى قام به البرابرة الشماليـــون فى تلك الفترة ، وبعد أن تكلم عن خلاف ماريوس مع مجلس الشيوخ قال ان أنانية الرومان حققت ما عجز هانيبال عن تحقيقه ، فقد انحل الاتحاد الرومانى وتبع ذلك نشوب حـرب أهلية دامية • وبعد حروب فى الشرق فقدت فيها روما نفوذها فى سوريا ظهر «كورنيليوس سولا» الذى قاد حروبا فى الخارج ثم عاد ليقود أخرى فى الداخل فأصبحت له السيادة المطلقة •

الفصل السـادس ـ « تدهور الجمهـورية الرومانية وسقوطها : من ٧٨ الى ٣٠ ق٠م »

ذكر فيه المؤلف أن المقصود من الدستور الذى وضعه « سـولا » كان ايجـاد حل للمشاكل السياسية فى الجمهورية الرومانية ، غير أن هذا الدستور ألغى تماما بعد عشرة أعوام من وفاة واضعه • ثم قال ان « بومبى » و « كراسيوس » و « قيصر » كانوا من بين الرجال الذين كان فى مقدورهم تدارك تلك الأخطار • وبعد أن تكلم عن الأولين قال ان قيصر ، وكان أصـغرهم ، استطاع أن يكتسب الموقف بفضل ماحصل عليه من شـهرة ، ثـم تخلص من منافسيه واحدا بعد الآخـر • غير أن ماحصل عليه من ألقاب وميزات جعل حكمه الفردى المطلق يثير عليه حفنة من الرجال ، بعضهم من الجمهوريين والبعض من اتباعه ، فاغتالوه فى ١٥ من مارس عام ٤٤ ق٠م

وبعد أن أشاد بصـفاته ومواهبه أشار الى الحوادث الهامة التى وقعت منذ موته حتى موقعة « اكتيوم » وهى الائتلاف الثلاثى الثانى ، وهزيمة قتلة قيصر ، وغرام انتونى وكليوباترا ، وآمالهما الكبيرة فى الشرق ، ثم استيلاء « أوكتافيوس » فى النهاية على مركز السيادة فى العالم الرومانى •

الفصل السابع ـ « الحياة الاجتماعية والثقافية فى أواخر عصر الجمهورية » •

استهله بقوله ان من الصعب أن يتوفر تقرير واف متزن عن الحياة الاقتصادية فى ايطاليا خلال القرن الأخير من عصر الجمهورية • وبعد أن علل لذلك قال ان القرن الأول قبل الميلاد كان يتميز بظهور طبقة من ذوى الثراء الواسع لأول مرة فى المجتمع الرومانى ، ثم تكلم عما تعودته روما من بذخ فاحش وحياة مترفة ، كما تكلم عن الزراعة والصناعة ، وقال ان الفلسفة اليونانية استمرت فى بسط نفوذها ، وأن الشباب الرومانى كان يتابع دراساته على مستوى المرحلة الجامعية فى مراكز العالم اليونانى الثقافية ، وبعد أن أشار الى كتاب تلك الفترة قال ان تأثير الفكر اليونانى كان قويا على كتاب العصر الأخير من الجمهورية ، ولكنهم جمعوه وسخروه لخدمة أغراضهم الخاصة •

الفصل الثامن ـ « أوغسطس »

أفرده المؤلف للتكلم عن هذا الامبراطور ، فقال ان قليـلا من الساسة واجهوا مثلمـا واجهه من مشـاكل ، وأقل منهم وجـدوا حلولا بمثل ذلك النجـاح الكبير ،وقال ان هـدف « أوكتافيوس » الاساسى كان اقامة أسس راسـخة دائمة تقوم عليها حكومة روما • فاذا كان الحظ قد لعب دوره فى وصوله الى ذلك فان الفضل يرجع أولا الى مواهبه السياسية ، ثم ختم هذا الفصل بقوله :

« وعلى الرغم من تفانى الامبراطور العظيم فى العناية بشئون العالم الذى كان يحكمه فانه لم يعلم شيئا عن أهم حادثة وقعت أثناء حكمه ، ففى حوالى مايقدر بالعام الثامن أو السادس قبل الميلاد ـ أو الأول الميـلادى حسب تقـويمنا ـ قام « كويرينيوس » ، حاكم سورية ، بعملية احصاء فى فلسطين • ومن بين الجموع الغفيرة التى كانت فى طريق عـودتها الى قراها الأصلية لتسجل نفسها كان هناك نجار وزوجته فى طريقهما الى بلدة « الناصرة » • غير أن الزوجة الشابة كانت حاملا ، فاجاءها المخـاض الى حظيرة ، اذ لم يكن ثمة موضع خال فى الخان • وهكذا ولد طفل قدر لحياته أن تغير من الامبراطورية الرومانية ومن العالم » •

الفصل التاسـع ـ « الأدب والفن فى عصر أوغسطس » •

وقد اسـتهله بقـوله ان القليل من فترات التاريخ هو الذى يمكنه أن يقف على قدم المساواة مع الأعمال الخلاقة التى أنجبها عصر أوغسطس فى ميدان الأدب والفنون ، وهذه الفترات هى عصر بيركليس فى أثينـا ، وعصر اليزابيث فى انجلترا ، وعصر لويس الرابع عشر فى فرنسا ، وقد لا يكون من السهل أن نضيف شيئا الى هذه القائمة ، فعصر النهضة فى ايطاليا كان ظاهرة

أكثر تعقيدا ، وقد امتد فترة أطول ، ثم قال ان المصطلح « الأوغسطى » أصبح ينسب الى فترات زمنية تمر بحضارة أمة ، تستحق بالفعل أن يطلق عليها لقب « كلاسيكية » ، وهى فترات تكون فيهـا الآداب فى مرحلة تجـاوب مع أهـداف الحكومة ومثلها العليا • غير أن القاعدة القائلة بأن الكتاب العظام يجب عليهم أن يسهموا فى بناء الدولة أصبحت تناقض نفسها فى عصرنا الحديث ، وذلك لأن هؤلاء الكتاب العظام منذ العصر الرومانتيكى أصبحوا دائما من الثائرين على الأوضاع •

الفصل العـاشر ـ « السـلم الامبراطورى (١٤ ـ ١٩٢ م) •

أشـار فيه المؤلف الى الفرق الجوهرى بين تاريخ الجمهورية وتاريخ الامبراطورية ، وقال انه باختفاء الأحزاب السياسية والنقاش العلنى أصبح التـاريخ السياسى قاصرا على موضوعات قليلة خاصة بالامبراطور والبلاط ، ثم تكلم عن « تيبريوس » الذى خلف أوغسـطس فى عام ١٤ م • فقال انه كان رجلا حاد الطبع لا تسيطر عليه الأوهام ، وانه مات فى عزلة تامة فى عام ٣٧ م ، ثم جاء بعده « جايوس » الذى تربى منذ طفولته فى معسـكرات الجيش ، وأطلق عليه



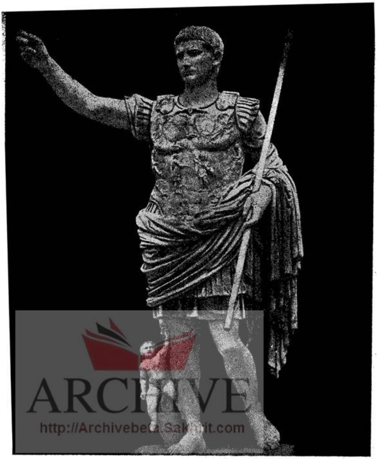
اسم مستعار هو « كاليجولا » وكان يؤمن بشىء واحد ، هو أن العالم ملك له يفعل به كما يشاء• وقد ارتاح العالم عندما اغتاله الجنود فى عام ٤١ م • أما « كلوديوس » فقد برهن بالرغم من أنه كان معتلا على أنه من أقدر الأباطرة • وبعد أن قتل على يد « أجريبينا » تولى ابنها « نيرون » الحكم فسار سيرة صالحة فى البدء ولكن سرعان ما انقلب حكمه الى كابوس من المؤامرات والدعارة والاغتيالات ، ثم انتهى بانتحاره فى عام ٦٨ م ، ثم تكلم عن الأباطرة الذين جاءوا بعد نيرون ، من « فسباسـيان » الذى أعلن امبراطورا فى الاسـكندرية ثم اغتيل فى عام ٦٩ م • حتى « كومودوس » الذى توفر عـلى الملذات ، فكانت فترة حكمه كارثة على الامبراطورية •

الفصل الحادى عشر ـ « السلام الرومانى : ١٤ ـ ١٩٢ م » •

استهل المؤلف هذا الفصـل بالاشـارة الى عبارة « بلينى » ، وهى « عظمة السلام الرومانى التى لا حد لها » ، فقال انها تعبير رائع لايستطيع تجاهله كل من تعرض لوصف العالم الرومانى فى أوائل عهد الامبراطورية ، وبعد أن تكلم عن حدود ذلك العالم ، وسكانه ، ولغاته ، وعملته ، وقانونه ، قال ان الامبراطورية خـلال تلك القرون كانت تمثل أقرب المحاولات لقيام دولة عالمية •

ثم تكلم عن التقسيم الأساسى للامبراطورية ، فقال ان القسم الشرقى كان يتمتع بثقافات عظيمة هى اليونانية والسامية والشرقية ، أما الغربى فقد تمدين على أيدى الرومان •

وختم هذا الفصل بالاشـارة الى ماجـاء فى المصادر الأدبية من اشـادة بالنعم التى أسبغها السلام الرومانى ، ثم جـاء بآراء تعارض ذلك أبرزها قول « يوحنا اللاهوتى » : « وألقوا ترابا على رؤوسهم ، وصرخوا باكين ونائحين ، قائلين : ويل ويل ! المدينة العظيمة التى فيها استغنى جميع الذين لهم سفن فى البحر من نفائسها ، لأنها فى ساعة واحدة خربته ! افرحى لها أيتها



السماء والرسل والقديسون والانبياء ، لان الرب قد دانها دينونتكم » .

الفصل الثاني عشر ـ « الانهيار والسقوط ١٩٣ ـ الى ٤٧٦م »

وقد استهله المؤلف بقوله انه « على الرغم من الآمال التى راودت مؤلف رؤيا « يوحنا اللاهوتى » فان الامبراطورية لم تواجه نهاية عاجلة . وقد علل لأسباب الانهيار والسقوط فقال انه منذ سنة ٣٥٠ وما بعدها صاحب المراحل الاخيرة لانحلال الامبراطورية الغربية تجدد هجمات البرابرة على نطاق واسع . وبوفاة آخر الاباطرة عام ٣٩٥ انقسمت الامبراطورية نهائيا الى قسم شرقى وآخر غربى . ومنذ ذلك التاريخ لاتتضمن قصة الغرب الا سردا لمواطن الضعف التام ثم أشار الى انشاء مدينة القسطنطينية وتاريخ افتتاحها ، كما إشار الى تاريخ سقوطها فى أيدى الاتراك .

الفصل الثالث عشر ـ الثقافة القديمة والمسيحية ١٤ ـ ٤٧٦ م .

افتتح المؤلف هذا الفصل بالاشارة الى أنه ليس من اليسير اسباغ طابع الوحدة والتماسك على تاريخ الامبراطورية الثقافى ، وذلك لأن العصر الفضى للأدب اللاتيني ، وقد بدأ بموت أغسطس لا يمتد الى مابعد موت هارديان فى عام ١٣٨ ، ثم قال ان « أوغسطين » يعتبر واحدا ممن خلف انتاجهم أعظم الأثر على الانسانية ، ففيه امتزجته التقاليد القديمة والتقاليد المسيحية فى أسمى مستوياتهما .

الخاتمة :

وقد استهلها المؤلف بالسؤال عن الأسباب التى أدت الى انهيار سلطان روما فى الغرب ، وبعـد أن استعرض آراء الباحثين وأبدى عدم اقتناعه بها قال ان معرفتنا بالماضى تعين على أن نظل ساهرين لمواجهة الأخطار التى تهددنا .. الخ . ثم ختم الكتـاب بايراد تعقيب كتبه « جريجورى العظيم » فى هذا الصدد ، وهو : « لقد كانت الأعمار طويلة والصحة موفورة ، والرخاء المادى يبسط ظلاله والشعب فى زيادة ونمو ، وكان الهدوء والسلام يسودان حيـاة الناس اليومية ، ولكن بينما كان العالم نفسه فى ازدهار كان الرخاء فى قلوب هؤلاء الناس يذوى ويضمحل » .

ومع اعجابنا بالاسلوب العلمى الذى اتبعه الاستاذان الفاضلان فى الترجمة نرى من الواجب أن نشير الى ماعثرنا عليه من أخطاء طفيفة وقعت أثناء الطبع ، وهى :

صفحة

١١ ـ من جنس بحر متوسـط : من أجناس البحر المتوسط .

١١ ـ لغات هندية ـ أوربية : هندية ـ آرية .

١٢ ـ القادمين من وسـط أوربا : قادمين من وسط أوربا .

١٢ ـ والذين ما ان جاء عام ٧٠٠ : وما ان جاء عام ٧٠٠ .

١٥ ـ المليون الأول : الألف الأولى (؟) .

٦٩ ـ أكفأ جنودا : أكفأ جنود .

٦٩ ـ لنعبر : ليعبر .

٧٠ ـ Byrenees Pyrenees

صفحة

١٠٣ ـ كان « سكيبيو » وصديقه زعيما لرجال السياسة : زعيمان .

١٣٨ ـ انفسهما : نفسيهما .

٢١٨ ـ قدر من النفوذ مايجعله : يجعله ، أو من النفوذ ما يجعله .

صفحة

٢١٨ ـ صاحبى الوظائف : أصحاب الوظائف .

٢٢٠ ـ حتى يستطيعون : حتى يستطيعوا .

٢٢١ ـ لموارد الامبراطورية الرومانية جرداء : جمعاء أو كلها .

٢٣٠ ـ الناصرية : الناصرة .

٢٣٣ ـ دعت الاستاذ « تنى فرانك » افتراض : الى افتراض .

٢٣٥ ـ كل هذا أمرا مسلم به : أمر مسلم به .

٢٦٦ ـ من التـأثير بالحضـارة : من التأثر بالحضارة .

١٤٧ ـ اللذان : اللذين .

١٤٧ ـ يخلف مركزهم : يخلفهم فى مركزهم .

١٥٠ ـ يعتبرونه حـرب مقدسـة : حربا مقدسة .

١٥٥ ـ بمثابة تحذيرا : بمثابة تحذير

١٥٦ ـ ثمانى عشر شهرا : ثمانية عشر شهرا .

١٥٩ ـ أضغمها مع وظيفة : أدغمها ، أو أدمجها فى .

١٧١ ـ الثورة : الثروة .

٣١٢ ـ لم يكن يجيدون : لم يكونوا يجيدون .

٣١٣ ـ لأصبح بين أيدينا فصلا : فصل .

٣٢٥ ـ تمثلان نقطتان : نقطتين .

٣٥٥ ـ النطاق الكبير التى : الذى .

٣٧٥ ـ اجتذبت اليها الباحثون : الباحثين .

٣٧٧ ـ أعمـال التنقيب الذى أجراها : التى أجراها .

غير أننا نعتقد أن مثل هذه الهفوات التى لم تكن تحدث لولا العجلة التى يفرضها الاهتمام بانجاز مثل هذا العمل الكبير لا تنقص بحال من الجهـد الذى بذل فى اخراج هذا الكتاب الذى يجب أن نقول ان من فائدة كل مثقف أن يطلع عليه ، اذ انه يعرض علينا تاريخ أخطر فترة مرت بالعالم حتى يومنا هذا ، لا من الناحية السياسية وحسب بل أيضا من الناحية الدينية .

اللطيف محمد الدمياطى



باقة الزهور

من بين دواوين الشعر التي صدرت في العالم العربي في أوائل هذا العام وقفت طويلا أمام ديوان « باقة الزهور » للشاعر التونسي الصادق مازيغ وهو الجزء الأول من مجموعة شعرية أطلق عليها «ضياء»، ولم يكن مرد ذلك ما تميز به الديوان من أناقة في الطباعة وابداع الاخراج ٠٠ وانما مرد أننا في القاهرة قد عرفنا الكثير عن شعراء الشرق العربي في النصف الأول من هذا القرن وما عرفناه عنهم قد يفوق ماعرفناه عن كتاب القصة والمسرحية في هذه المنطقة في حين أننا لا نكاد نعرف أن هناك شعرا ينظم في شمال افريقية باللغة العربية في الوقت الحاضر وأن هذا الشعر يجد سبيله الى النشر في مجموعات لا أقول تكفل له الخلود وانما تكفل له نصيبا من عناية النقاد والدارسين في العالم العربي عندما يتاح لأدب هذه المنطقة العزيزة من الوطن العربي أن يأخذ حظه من الدراسة والنقد ٠٠

ومن بين القصائد الخمس والعشرين التي تضمنها الديوان استوقفتني قصيدة كنت أود لو صدر بها الشاعر ديوانه وهي قصيدة « أيها الشعر » التي وردت في صفحة ٣٢ وما بعدها ، ذلك أن القصيدة قد تضمنت رأي الشاعر ولعله رأي كثيرين غيره من شعراء تونس المعاصرين في رسالة الشعر العربي ٠٠ ومقومات القصيدة الناجحة ٠٠

يبدأ الشاعر قصيدته قائلا :

أيها الشعر أتبع الشكر حمدا ... وتوخ الصواب والعدل قصدا
وكن الهاتف المبلغ والناضد ... للحادثات فى السلك عقدا
وكن الراوى المسجل للتاريخ ... ماجد من شئون وعدا
قولك الهادى المنزه عن لغو ... سيبقيه ناشدا الحق وكدا

وواضح من هذه الأبيات أن رسالة الشعر فى نظر الشاعر هى تسجيل ما يمر بالوطن من أحداث وخطوب فيكون سجلا لها أبقى على الدهر وأصدق من سجل المؤرخين والسياسيين ، وهذه الفلسفة لها مايبررها من طبيعة المعركة الضارية التى خاضتها شعوب شمال أفريقية فى السنوات العشر الأخيرة لانتزاع استقلالها من غاصبيه واستكمال مقومات هذا الاستقلال .

وينتقل الشاعر بعد ذلك الى الحديث عن الاسلوب المثالى للشعر فى نظره :

لا تكن مولعا بحشد القوافى ... ضخمت بالمحال والزور عمدا
تملأ السمع بالرنين المدوى ... وهى جوفاء كلما رمت نقدا
انما الشاعر الذى ينحت القول ... رصينا يبقى على الدهر صلدا
انما الشعر ماكفاك قليل ... منه كالخال زان بالنقط خدا
أو كظل الربيع يهمى على الروض ... فيسقى آساو ينعش وردا
وتظل الأسماع منه نشاوى ... حافظات لبارع السبك عهدا

ومن عجب أن الشاعر وهو ينهى نفسه وأقرانه من الشعراء عن التزيد والاسهاب جاء ديوانه حافلا بالألوان من الاسهاب والتزيد مما أحال بعض قصائدة الى معلقات تدور فى فلك واحد هو الفخر والمديح .

بقلم
فاروق
يوسف
اسكندر

أما عن رضانة الأسلوب الشعرى وجزالته فالحق يقال ان الشاعر كان فى كثير من قصائده صادقا مع نفسه وفيا لتقاليد الشعر العربى القديم ، وان كان وفاؤه هذا قد انزلق به فى كثير من الأحيان الى تصيد بعض الألفاظ الغريبة التى غدت مهجورة فى الشعر العربى المعاصر ظنا منه أن ذلك يرفع من قدر قصيده .. وهو فى الواقع يباعد بينه وبين جمهوره من قراء وسامعين على السواء .. ولما كان الشاعر من دعاة تسجيل الشعر لأحداث التاريخ الكبرى فقد سجل فى ديوانه حادثين هامين اهتز لهما ضمير العالم فى السنوات الاخيرة : الحادث الأول ضرب « ساقية سيدى يوسف » بالقنابل .. والثانى الاعتداء الفرنسى الوحشى على مدينة « بنزرت » ..

وقد سجل الصادق مازيغ الحادث الأول فى قصيدة بعنوان : « محنة وانتصار أو ذكرى ساقية فيقول فى وصف الاعتداء :

عمدوا الى الاحياء من جنس الورى　　يصلونهم ويلا ومحق بلاد
يقضون أمرهم بعسف ماكر　　يدوى وأمر الله بالمرصاد
يلقون من عليائهم فى مأمن　　رعبا يذيب رواسخ الأطواد
تندك منه الشامخات وتنثنى　　منه المنازل وهى كوم رماد
منه الديار تنكرت وتمزقت　　أشلاء حى للردى منقاد

ويشير الشاعر الى الاعتداء البربرى القائم الذى لم يفرق بين مدنيين وعسكريين وانما تعمد البطش والتنكيل بالجميع على السواء امعانا فى التشفى والارهاب :

ومجازر سيقت اليها بغتة　　أمثالنا من رائحين وغادى
قتل بلا ذنب وذبح شامل　　قد بيتوه بأحكم استعداد
وتعمد للبطش والترويع والتفـ　　ـريق بين الأم والأولاد
والأبرياء من الضحايا همهم　　الذئب لا يسطو على الآساد

وينتفض الشاعر بعد ذلك غاضبا ثائرا موضحا أن الاعتداء لم ينتج أثره الذى أراده له المستعمرون وانما على العكس كان خطوة على الطريق فى سبيل التحرر الكامل من غير الاستعمار فازداد ايمان الشعب بحقه فى الحرية والكرامة ٠٠ واستنكر العالم هذا العدوان ٠٠ ودخلت « ساقية سيدى يوسف » التاريخ رمزا للتضحية والبطولة ٠٠

خابت مساعى الآثمين واخفقت　　فى كبت شعب صامد لعوادى
أمسى ضمير الشعب يفضح عسفهم　　بوميض برق أو صرير مداد



ما كانت البلوى لتكسب شعبنا   الا مضاعف همة وعتاد
ما كانت الأرزاء الا مصهرا   لعزائم الاتباع والقواد
عجبا لذكرى بالدماء تدفقت   أمست تنافس بهجة الاعياد
عجبا لسلسلة انتصارات لنا   كان البشير بهن يوم حداد
عجبا لربع كان نسيا مهملا   نال الخلود بناصع استشهاد

أما « بنزرت » فقد ظفرت من الشاعر بقصيدة من ستين بيتا بعنوان « لا ننثنى أو يكف البطش سورته » ·· ومن أبياتها التى يخاطب فيها المدينة الباسلة قوله :

بنزرت درة عقد البحر بغيتنا   لا ننثنى عنك أو نحظى بلقيانا
لا ننثنى أو يكف البطش سورته   ويرتضى العدل والانصاف ميزانا

ويتساءل بعد ذلك كيف يكون هناك استقلال وقطعة غالية من الوطن يحتلها الاجنبى المستعمر مؤكدا أن احتلال شبر واحد من أرض الوطن ينتقص من استقلاله وعزته وكرامته وهو يرد بذلك على الذين تساءلوا عن سبب المقاومة التى اندلعت بين صفوف الشعب والجيش فى « بنزرت » تستهدف اجلاء الفرنسيين عن قاعدتهم البحرية العربية ·

متى استقلت بلاد وهى مغضية   عن القذى تستسيغ العسف ألوانا
متى استقلت بلاد وهى كاظمة   على المضاضة صدرا بات حيرانا
متى نعمنا بصفو العيش مرتفعا   وثلة من جنود البغى ترعانا
هذى معاقلهم فى قلب أمتنا   كأننا ما عبرنا قط بلوانا
ما دام شبر من الاوطان مغتصبا   فما فتئنا بدار الذل سكانا

وينتقل الى الحديث عن جو المعركة وهبوط جنود المظلات على دور المدينة الآمنة المطمئنة ويتساءل فى سخرية مريرة أين كان هؤلاء المغاوير وقت معركة « ديان بيان فو » التى هزمت فيها فرنسا شر هزيمة فى الشرق الأقصى :

قالوا «المظلات ألقت جندها غلسا»   فقلت « ألقت على الغبراء أدرانا »
ألقت أبالس شؤم لاخلاق لهم   قد جردوا لاقتراف النكر فتيانا
جبن وغدر وقبح من شمائلهم   أضفت عليهم شنيع الصوت مرنانا
من كل فاحشة تؤتى ومجزرة   شنعاء داهمة حورا وولدانا



وقتـل أسرى حيـارى لاعتاد لهم　　جهـلا وبغيـا واسرافا وعدوانا
فذاك رهط «فرنسا» من أباح لها　　خزيا وكللهـا بالعار تيجانا
فذاك جنـد « ديانبفو » وقلعتهـا　　من خلدوا لطغاة الغرب أشجانا

ولا ينسى من أن يردد فى هـذه القصيدة ما ردده فى قصيدته عن « ساقية سيدى يوسف » من أن تباشير النصر تلوح فى الافق عندما تشتد الظلمة وتتكاثف :

بدر الجلاء تجلى فى مآتمنا　　يشـع فى موطن الأرزاء سلوانا
يفيض يمنـا على الخضراء منتصرا　　على الردى بجـلال الروح مزدانا

ومع ايمان الشـاعر العميق بحتمية الكفاح المسلح وضرورته لاجلاء الغاصبين فان نفسه تهفو الى السـلام وتحن اليه فيتحدث عنه فى أسى ممزوج بالرجاء والامل ٠٠ فى قصيدة بعنوان « رسول السلام » :

السلام الوديع طفل نحيل　　يتجلى والحرب تدوى رحاها
السلام الشريد يمشى هزيلا　　هائمـا فى البـلاد يطوى فلاها
أزعجته الخطوب من كل صـوب　　فتلوى مروعـا بلظـاها
وتعالت من حوله ضـجة الويـ　　ـل يصم الأريب هولا صـداها
وضباب للموت ساج على الكو　　ن ودنيا تلفعت بشـقاها
لكأن القلوب أخرسها اليـ　　ـأس فأمسى يئن عجزا نهـاها

لو تراءت لها حمائم سلم أو شكت للحمام رمزا تراها
أنكرت بهجة الحياة البرايا فتهاوت للموت طوع هواها

والجيل الحاضر قد شهد احتدام معارك القومية العربية وثورات التحرير . وتاريخ الانسان يشهد بأن الادب هو الذى صنع الثورات فكرية واجتماعية وسياسية ، فكان حاديها وقائدها الوجدانى ، كما انه الذى أثار مشاعر الجماهير وزين لها القيم والاوضاع .. وهناك تطور جوهرى فى شعرنا العربى المعاصر فالحدود الاقليمية بين أقطار الوطن العربى تتماحى فى وجدان الادباء .. وأنمحت بشكل واضح فى ديوان «باقة الزهور» .. ففى وجدان الصادق مازيغ انمحت الابعاد والغيت المسافات ، ونراه فى قصيدة « اللعنة تسحق أيامى » يخوض بكل مشاعره فيعبر عن أمله فى العودة الى فلسطين .. ووحدة العرب الكبرى .. فيقول :

اللعنة تسحق أيامى ..
ان لم يصبح وادى التيه طريق العودة
ان لم يفض الوادى .. بحرا .. يدفق جرا
ان لم تشرق فيه ربانا فجرا
ان لم تطلع فيه خطانا وردا نضرا
ونعود جميعا .. نبنى .. ونرفع ..
نصبح ظل الله
نستلهم رشده
نستنجز وعده
فى ظل الوحدة !!
يا يوم العودة !!
يا يوم العودة !!

وبجانب اللون الوطنى الذى يزخر به الديوان .. نجد بعض القصائد المتناثرة فى فلسفة الحياة والحنين ووصف الطبيعة والمديح غير ان انفعال الشاعر فى هذه المجالات يبدو ضعيفا مما يظهر معه التكلف واضحا والمعانى سطحية ، والصياغة ركيكة فى كثير من المواطن .. ومن قصيدة للشاعر بعنوان « أيا شجرة الحياة » :

زمام العيش رأى مستنير وصدق العيش فارسه القدير
وتطهير الجوانح والنوايا قرين اليمن يألفه السرور

نقاوة روضة غناء تشدو بلابلها وينبثق العبير
وحب وانسجام / وائتلاف وأنس لا تنقصه الدهور

والقصيدة بهذا الوضع لا تعدو أن تكون ترديدا لمعان ساذجة بألفاظ شائعة تفتقر الى قوة الخيال وجمال اللفظ وحسن التعبير ..

وقد وصف الشاعر الطبيعة فى قصيدة بعنوان « حى الربيع » بدأها هكذا :

حى الربيع الطلق يمرح مقبلا   والغيث ينقط ثوبه متفضلا
والزهر يرقم فى ثنايا برده   وشيا ويمنحه القلائد والحلى
والطير نشوان على افنانه   يشدو بنظم ينتقيه مرتلا
والشمس غانية تكامل حسنها   تخفى وتظهر للعيون تدللا

ولن يحتاج القارىء الى جهد كبير ليتبين ان هذه القصيدة مستوحاة معنى ولفظا من قصيدة البحترى الشهيرة :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا   من الحسن حتى كاد أن يتكلما

وبعد ، فلعل للشاعر ولمن يسير على نهجه من شعراء المغرب العربى بعض العذر فيما ارتضوه لانفسهم من تقليد للشعر العربى القديم فى كثير من المواطن من حيث الشكل والمضمون تقليدا كادت تذوب معه شخصيتهم

فى شخصية الشعراء العرب الاقدمين .. أقول لعل له ولهم بعض العذر فى ذلك لتقطع أوصال الصلات الثقافية والادبية بين المشرق والمغرب العربيين فى النصف الاول من هذا القرن بفعل الاستعمار والاجهزة التى كانت تعمل بوحى منه مما باعد بين شعراء المغرب والحركة الادبية المتطورة فى المشرق ..

أما الآن وقد تكسرت الحواجز ووجدت الصلات الثقافية المتعددة بين جناحى العروبة فانه لا مراء فى أن حركة الشعر فى الشمال الافريقى ستفيد كثيرا من التطور الذى أصاب الشعر فى المشرق .. ومن يدرى فقد يبرز من بين شعراء هذه المنطقة شاعر أو شعراء لامعون يجددون مجد ابن هانىء ويصلون ما انقطع من مجد وشاعرية أبى القاسم الشابى

« **فاروق يوسف اسكندر** »

أخبار الكتاب العربي في العالم

يقدمه مدير التحرير

● فيما بين سنتى ١٨٧٧ ـ ١٨٨١ نشر مستشرق هولندى من أكبر علماء الاستشراق هو رينهارت بيتر آن دوزى Dozy, R. P. A.

ـ الذى ولد فى ليدن سنة ١٨٢٠ وتوفى بها سنة ١٨٨٣ وهو من أصل فرنسى لكن أجداده انتقلوا فى القرن السابع عشر الى هولندة ـ معجما بالعربية والفرنسية جعله ذيلا للمعاجم العربية حيث أثبت فيه الألفاظ التى لم يجدها فى تلك المعاجم ، وسماه Snpp.ement aux Dictionnaires Arades ـ وقد طبع فى جزءين ضخمين فى مدينة ليدن فى الفترة التى أشرنا اليها ثم نشر فى باريس سنة ١٩٢٧ حيث كان معنيا بدراسة اللغة العربية والألفاظ الدخيلة عليها ، كما وضع رسالة عن **الملابس العربية** قدمها فى شبابه الى جامعة ليدن ٠

وفى سنة ١٩٢٣ طبع فى الجزائر معجم آخر يعد تكملة لمعجم دوزى قام به مستشرق فرنسى آخر هو : م ٠ **فانيان** Eagnan,m

الذى ولد فى بلجيكا سنة ١٨٤٦ وتوفى سنة ١٩٣١

وهذه المعاجم : **معجم دوزى ومعجم فانيان** عن الكلمات العربية التى لم ترد فى المعاجم السابقة ثم **معجم دوزى عن الملابس** جديرة بأن تنهض **المجامع العلمية العربية فى مصر والعراق وسورية والهيئات الثقافية التى تعمل على نشر المعاجم** باعادة النظر فى نشر معاجم هذين المستشرقين بعد ترجمتها واضافة ما عثر عليه علماء آخرون من ألفاظ لتكون بين أيدى الباحثين حيث أصبح من العسير الحصول على شىء منها لندرة نسخها وغلاء ثمنها ٠

وهذه دعوة قومية جديرة بأن تلقى من هذه الهيئات الرعاية الواجبة والتحقيق العاجل ٠

● وفى هذا الباب من النشر نشير الى جهد آخر قامت به « **جمعية المستشرقين الألمانية** » حيث كانت قد بدأت منذ عام ١٩٣١ فى نشر كتاب من أوفى المصادر فى التراجم وهو كتاب « **الوافى بالوفيات** » الذى ألفه صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى والمتوفى سنة ٧٦٤ هـ ويقع هذا الكتاب فى ثلاثين مجلدا ٠

وقد نشر الجزء الأول سنة ١٩٣١ ، وصحح ونشر الثانى سنة ١٩٤٩ ، والثالث سنة ١٩٥٣، ثم الرابع سنة ١٩٥٩ وتوقف نشر باقى الأجزاء منذ هذا التاريخ فلم يظهر شىء منه بعد ٠

وهذا الكتاب أيضا صعب المنال مرتفع الثمن،

والمدى البعيد بين ظهور جزء وجزء يجعل أمر نشره على الناس كاملا أملا بعيد الأفق ، وأمرا ميئوسا منه .

لذلك أهيب **بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية** أن يعمل على نشر هذا الكتاب في المشروع الثقافي الكبير الذي أخذه على نفسه حين بدأ في نشر كتب قيمة مثل « **المحكم** » و « **سير أعلام النبلاء** » و « **أنساب الأشراف** » و « **مختار الأغاني** » ، فهو أقدر الهيئات الثقافية على ذلك بما لديه من مخطوطات الكتاب وأقدرها في الحصول على ما يكتشف من مخطوطاته .

وجدير بالهيئات الثقافية في البلاد العربية أن تعمل من جانبها على التعاون مع هذا المعهد في نشر مرجع من أوسع المراجع في تراجم الرجال ومن أنفس تراثنا الفكري .

● وكنت قد أشرت في العدد الثامن والعشرين من هذه المجلة الصادر في شهر سبتمبر الماضي الى معجم « **المحكم والمحيط الأعظم في اللغة** » لابن سيده والذي قام « **معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية** » بنشره فظهر منه ثلاثة أجزاء ، وتمنيت أن يتابع المعهد نشر باقي أجزائه ، وقلت انه لا شك أن « معهد المخطوطات » ـ وهو يؤدي رسالته الثقافية الكبرى ـ لن يفسح أمد انتظار الناس لبقية أجزاء هذا المعجم .

ويسرني أن أعلن أني قد علمت أن مدير هذا المعهد الأستاذ توفيق أحمد البكري ـ وهو أديب واسع الاطلاع ، وشاعر كبير له أثر بارز في الحركة الفكرية المعاصرة في البلاد العربية عامة وفي السودان خاصة ـ مهتم اهتماما كبيرا ببعث الحياة في بقية أجزاء الكتب التي كان المعهد قد نشر منها أجزاء ثم توقف النشر . وأن هناك أجزاء من « **المحكم** » قد حققت ومهيأة للنشر ، وأنه لن يطول الأمد ـ كما تمنيت ـ على الناس في انتظار بقية أجزاء هذا المعجم ، ولا بقية أجزاء الكتب التي خرجت عن هذا المعهد أو ينوي اخراجها .

وقد قام المعهد بتقديم **الجزء الرابع** من معجم « **المحكم** » للطبع ، وهذا الجزء من تحقيق الأستاذ عبد الستار أحمد فراج

● وفي سلسلة « **تراثنا** » التي تصدر عن « **الدار المصرية للتأليف والترجمة** » صدر **الجزء الثاني** من كتاب « **معاني القرآن** » لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء المتوفى سنة ٢٠٧هـ بتحقيق المرحوم الشيخ محمد على النجار عضو مجمع اللغة العربية .

وكانت دار الكتب المصرية قد نشرت سنة ١٩٥٥ الجزء الأول من هذا الكتاب بتحقيق المرحومين أحمد يوسف نجاتي ومحمد على النجار، وسيظهر الكتاب في ثلاثة أجزاء ، انفرد الشيخ محمد على النجار ـ رحمة الله عليه ، بتحقيق الثاني والثالث بعد أن انتقل زميله الاستاذ أحمد يوسف نجاتي الى جوار ربه من سنوات .

ومن الطرائف التي تدل على قيمة كتاب «معاني القرآن » أن ابن خلكان في ترجمته للفراء يذكر هذه القصة : « قال الراوي : وأردنا أن نعد الناس الذين اجتمعوا لاملاء كتاب المعاني فلم نضبطهم ، فعددنا القضاة فكانوا ثمانين قاضيا، فلم يزل يمليه حتى أتمه » . ثم يذكر ابن خلكان طرفة أخرى فيقول : « ولما فرغ من كتاب المعاني خزنه الوراقون عن الناس ليكسبوا به ، وقالوا : لا نخرجه الا لمن أراد أن ننسخه له على خمس أوراق بدرهم . فشكا الناس الى الفراء ، فدعا الوراقين فقال لهم في ذلك فقالوا : انما صحبناك لننتفع بك ، وكل ما صنفته فليس بالناس اليه من الحاجة ما بهم الى هذا الكتاب ، فدعنا نعيش به ! فقال : فقاربوهم تنتفعوا وينتفعوا . فأبوا عليه ، فقال : سأريكم . وقال للناس : انى ممل كتاب معان أتم شرحا وأبسط قولا من الذى أمليت . فجلس يملى فأملى **الحمد** في مائة ورقة، فجاء الوراقون اليه وقالوا : نحن نبلغ الناس ما يحبون فنسخوا كل عشر أوراق بدرهم » .

ومن هاتين الطرفتين يتبين ما كان لهـــدا الكتاب من مكانة بين الناس وحرص على اقتنائه مما دفع الوراقين الى التغالى فى نسخه ٠

● وعن « **الدار المصرية للتأليف والترجمة** » صدر أيضا كتاب « **القاهرة : تاريخها وآثارهـا (٩٦٩ ــ ١٨٢٥) من جوهر القائد الى الجبرتى المؤرخ** » تأليف الدكتور عبد الرحمن زكى ٠

والقاهرة وتاريخها هواية الدكتور عبد الرحمن زكى منذ زمن بعيد يرجع الى أكثر من ثلاثين عاما حين أصدر أول كتاب له عن هذه المدينة العريقة فى المجد فى جزأين (١٩٣٢ ــ ١٩٣٥) غـير البحوث التى نشرها عن معالم هذه المدينة ، ثم نشرت له « **الجمعية الجغرافية المصرية** » سـنة ١٩٦٤ كتابا عن « **مراجع تاريخ القاهرة منذ انشائها الى اليوم** » وقد دعاه الى وضعه انه رأى أنه لم يقم واحد من الباحثين بتصنيف المراجع والبحوث والمقالات والخرائط المتصلة بهـذه الحاضرة الزاهرة منذ أن نشأت فى عام ٩٦٩ الى الآن ، فقد كان كل كتاب يوضع عن القاهـــرة يقتصر ثبت مراجعه على ما اعتمد عليه المؤلف ، وظل قسم كبير من المراجع غير معروف الا لبعض الخبراء ، فأثبت فى كتابه حوالى ٢٤٠ مرجعـــا عربيا و ٤٠٠ مرجع أجنبى ٠

وعن هذه الهواية والافتتان بتاريخ حـاضرة العالم العربى يقول الدكتور عبد الرحمن زكى فى كتابه الجديد : « لقد صحبت القاهرة منذ سنوات طويلة،وجعلت من دراسة تاريخ خططها ومبانيها وتطورها هوايتى ٠ فكنت أسعى الى كل مسجد أو مدرسة أو وكالة أو سـبيل برفقة زملائى أو بصحبة نفسى لأبحث نقشا مكتوبا أو أصـعد مئذنة أو برجا لأشاهد شيئا قد يكون مستورا خلف بيت قديم أو خان حرب ٠ وقد شجعنى هذا على أن أعنى بدراسة الآثار الاسلامية دراسة علمية صحيحة ، فرحلت الى شتى المدن فى العالم العربى لأرى بعينى ما خلفته تلك الحضارة الخالدة من عمائر وفنـــون جعلتنى آقابل بينهـــا وبين ما يوجد منها فى بلدنا ، ودفعنى هذا الى مطالعة الكتب المتصلة بآثار المدن العربية وأقتنيهـا ٠ ثم حاولت أن أكتب عن القاهـــرة وتخطيطهـــا وأسوارها وأبوابهـا وعمائرهـــا ، فوفقت فى بعضها ٠ وصدر لى أول كتاب عن القاهرة بجزأيه (١٩٣٢ ــ ١٩٣٥) ٠ ولما عزمت بمشيئة الله ــ بعد أكثر من ثلاثين سنة ــ على أن أكتب مرة أخرى تاريخ القاهرة ، وجدت نفسى مضطرا لأن أتبع نفس المنهج التاريخى الذى ألفته وألفه غيرى من المؤلفين » ٠

ولقد أحســـنت « الدار المصرية للتـــأليف والترجمة » حين نشرت هذا الكتاب الذى يؤرخ لعاصمة العالم العربية ومصــدر الاشعاع الفكرى ومبعث التحرر القومى ، **ولكننا كنا نتمنى لو أن هذه الدار لم تضن على هذا الكتاب بملزمتين من الورق اللماع الصقيل تطبع عليه اللوحات التى ذيل بها هـذا الكتـــاب ان لم يتيسر طبعهـــا بالروتوغرافور حتى لا تطمس النقوش الدقيقه الجميلة والمناظر الأثرية الجليلة ، ولتكون هذه اللوحات التى اختارها المؤلف تحفة فنية تتألق فى هذا الموكب التاريخى المشرق لهذه المدينـة الساحرة : القاهرة ٠**

● زار مصر فى الشـــهر الماضى المستشرق التشيكوسلوفاكى **ك ٠ بتراتشيك** Petracek, k أستاذ الدراسات السامية بجامعة براغ فى رحلة يزور فيها العالم العربى لأول مرة ، وقد حدثنـــا

عن نشـــــاط المســــتشرقين المعاصرين فى تشيكوسلوفاكيا ٠

وأذكر أنى كنت قد نشرت فى مجلة «المجلة» حين كنت أتولى تحريرها وذلك فى العدد السابع منها الصادر فى يولية سنة ١٩٥٧ بحثا للدكتور جيرى نديلا ذكر فيه جهود الباحثين من رجـال الاستشراق الجدد فى تشيكوسلوفاكيا فقـال أنهم يكونون جيلا كبيرا من المستشرقين يفـوق بكثير ما كان بتشيكوسلوفاكيـا من مستشرقين فيما مضى ، وانه يرجع الى هؤلاء الباحثين الشباب فضل تقريب ثقافة البلاد التى نبعت من أرضها أقدم المدنيات وأعرقها الى أذهــان الشــعب التشيكوسلوفاكى ، كما يساهمون بجهودهم فى توسيع نطاق العلاقات الثقافية ، وتوطيد أواصر الصلات العلمية القائمة بين تشيكوسلوفاكيـــا والبلدان الآسيوية ٠

والدكتور بتراتشيك الذى زارنا فى الشــهر الماضى من مواليد عام ١٩٢٦ وكانت رســالة الدكتوراه التى تقدم بها الى الجامعة عن « **شعر الأحوص الانصارى** » وجمع فى هــذه الرسـالة شعر هذا الشاعر ونشر ثلاث مقالات عن لغته ، ونشر باللغة التشيكية كتابا فى ثلاثة أجزاء فى **تاريخ الادب العربى القديم والحديث** ٠ كما ترجم الى هذه اللغة قطعة من **قصة عنترة وعبلة** ، وهو ينـوى أن يكتب عن البناء الفنى لهذه القصة ٠ ونشر كتابا فيه ثلاث دراسات فى الادب الشعبى العربى بعامة واليمنى بخاصة تناول فيه أهمية الشــعر الشعبى للأدب العربى ، وقام بتحليل أوزان الشــعر اليمنى فى اللهجــات المهـرية والشحورية والسقطرية وأثبت أن الاوزان اليمنية لا توجد فى جميع الآداب الشعبية ويرجع أن ذلك يرجع الى الحضارة اليمنية القديمة ٠

ومن بحوثه أيضــا بحث عن « **لفظ الغين ، والعــين ـ غين ، والعــين ـ راء** » ، وبـحث عن « **مصر فى عهد العباسيين** » وبحث عن «الدراسات العربية والاسلامية والساميةفى تشيكوسلوفاكيا» ، وآخر عن نشاط المستشرقين فى تشيكوسلوفاكيا» ٠

وذكر لنا الدكتور بتراتشيك أسماء طائفة من زملائه وتلامذته الذين يعملون فى هذا الحقل أمثال :

بانتوتشيك Pantucek الـذى أعــد فى معهد الاستشراق لأكاديمية براغ مختصرا للسيرة الهلالية وبحثا تحليليا عنهـا ، وهو من المعنيين بالبحث فى قضايا الجزء الشمالى من افريقيا وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره ٠

والدكتور أوليفريوس Oliverlius

الذى يدرس الأدب الشعبى ، ويعنى بقصــة الزير سالم وقدم للطبع مختصرا لها ، ويعنى كذلك بدراسة اللهجة المصرية ، وهو أصغر من بانتوتشيك بسنتين ٠

أما المستشرق ر ٠ فيسلى Vesely, R

فهو شاب كزميليه ، وكان يقوم بتدريس اللغة التشيكية فى مدرسة الألسن بالقاهرة ، وهـو معنى بدراسـة العصر المملوكى فى مصر ونشر الوثائق الخاصة بالأوقاف فى هذاالعصر ٠

ويعنى المستشرق م ٠ فيدلر Fiedlet, m. بالفن الشعبى فى مصر واليمن ٠

وهناك ممن يعنون بالادب الحديث المستشرقة ز ٠ بوليفكوفا Z.Polivkova فهى تقوم بتقـديم رسالة عن مسرحيات محمود تيمور ، وتعنى الآن بدراسة اللغة السواحلية وأثر العربية على هــذه اللغة ٠

وقد ذكر لنا الدكتور بتراتشيك أن من أقدم الآثار الأدبية فى اللغة التشيكية القديمة ترجمة لبعض آيات القرآن الكريم ترجمهــــا القديس كيرلس فى منتصف القرن التاسع خــلال زيارته للبلاد العربية ٠

حسن كامل الصيرفى

رد على مقال

بقلم محمد علي زيد

الأستاذ رئيس تحرير مجلة الكتاب العربى تعليقا على مقال الأستاذالدكتور أحمد كمال زكى فى العدد الثامن والعشرين من مجلة « الكتاب العربى » الغراء ، والذى تناول فيه كتاب « الرومانتيكية فى الأدب الانجليزى » الذى كان لى شرف الاشتراك فى اختيار مادته وترجمته ضمن سلسلة الألف كتاب (رقم ٥١٥)، أود أن أذكر هنا بعض النقاط المتصلة بما تضمنه المقال ، راجيا أن تفسحوا صدركم لنشر هذا التعليق أو الرد ، الذى أكتبه لكم باسمى وبالنيابة عن زميلى الدكتور عبد الوهاب المسيرى المتغيب فى أمريكا .

أولا ، ليسمح لنا الدكتور أحمد كمال زكى أن نختلف معه فيما ذكره من أن كلمة « رومانسية » أصح من كلمة « رومانتيكية » ، ومن أن كلمة « رومانتية » أصح من الاثنتين . وسندنا فى هذا الخلاف هو ما ذكره الدكتور نفسه فى مقاله ــ بعد بضعة أسطر ــ من أن مدلول كلمة « رومانسية » فى اللاتينية ، وفى أدب أدب اللاتين عموما ، يختلف ويوغل فى القدم عنه فى الأدب الانجليزى ، و « يتعلق بالأدب الشعبى الذى كانت أداته اللغات العامية » ، ثم اختص به أكثر من غيرهم « أدباء اقليم بروفانس الفرنسى، وكاستيل وأراجون الاسبانيين ، لأنهم جميعا كانوا يتطرفون فى مشاعرهم ويبتعدون عن الواقع » . فنحن هنا أمام مدلولين لكلمة واحدة ، هى « الرومانسية » ، أحدهما ذو اطار مرجعي مرتبط بالتفريق بين اللغة الرسمية للامبراطورية الرومانية ، وهى اللاتينية ، وبين اللغات العامية الشائعة فى أرجائها ، والثانى اطاره المرجعى يرتبط بمضمون الأدب نفسه الذى ينتجه أدباء مناطق معينة .

والواقع أن لكلمة « رومانسية » عدد من المدلولات الأخرى ، أضرب صفحا عن ذكرها هنا تجنبا للاستطراد الأكاديمي ، وأكتفى بان أسأل : ألا يكفى أن يكون لكلمة واحدة مدلولان متمايزان لكى نتجنب اضافة مدلول ثالث الى هذين ؟ اذ لا شك أن الرومانتيكية فى الأدب الانجليزى ذات مضامين ومدلولات تميزها من جوانب

كثيرة عن مدلولات الرومانسية العديدة التى اكتفى الدكتور بذكر اثنين منها فقط ٠

لقد افترضنا أن شيئا من هذا خطر فى بال كاتب مادة «الرومانتيكية» فى موسوعة الأدب العالمى فجعله يتجنب الاستطراد الأكاديمى ، ولو لم يفعل هو ذلك لاجتنبنا نحن استخدام مقاله فى كتاب يصدر ضمن سلسلة تستهدف وضع الثقافة ميسرة بين يدى القارىء العادى ، مع اجتناب اغراقه بالتفاصيل الأكاديمية ٠٠ ثم ألم يورد مقال الموسوعة اشارة واضحة صريحة الى الفرق بين « كلمة » رومانتيكى Romantic وبين كلمة « رومانيسك Romanesque من حيث المفهوم وأليس فى هذا سبب كاف لاستخدام كلمة « رومانتيكية » بدلا من « رومانسية » ـ أو « رومانتية » التى هى تعريب لها ـ للبعد عن الاضطراب الناشىء عن تعدد مدلولات اللفظة الواحدة ؟

والحق أننا لم نظن أبدا ـ كما افترض الدكتور وأكد دون دليل ـ أن التعريف بالرومانسية والرومانتيكية وأدبهما من الموضوعات التى فرغ القول فيها ، فنحن نعلم جيدا أن هذا القول لم يفرغ فى العالم الغربى ذاته ٠٠ ولكن ما ذنب القارىء العام؟ هل ندعوه الى كتاب يستهدف تعريفه بمذهب أدبى معين ، ثم نضطهده باغراقه فى خضم أكاديمى لم يتضح شاطئه بعد؟ لا أظن أن الدكتور كان يغفر لنا ذلك لو أتيناه !!

لقد رأينا ، كما رأى الدكتور ، أن « الرومانتيكية » مفهوم مركب يستعصى على التعريف الجامع المانع ، ففضلنا أن نعطى القارىء فكرة موجزة عن تاريخ الرومانسية ، مع الاشارة الى الفرق بينها وبين الرومانتيكية ، ثم فكرة موجزة أخرى عن الرومانتيكية كحركة أدبية ، ثم نتركه بعد ذلك ليصل بنفسه الى مفهومها المركب من خلال قراءته للمقالات التى قدمناها على النصوص ، ثم من خلال النصوص ذاتها ٠ وقد كانت هذه فى رأينا هى خير وسيلة للتغلب على صعوبة التعريف لأننا ، فى النهاية ، لم نكن نصنف ونترجم كتابا لتلامذة الأدب ، وانما للقارىء الذواقة ٠

وتأتى بعد ذلك نقطة ثانية نختلف فيها مع الدكتور أحمد كمال زكى ٠ فهو يقرر أن الرومانتيكية ـ التى يسميها الرومانسية ـ قد قتلها التقدم الآلى الا بقية انبثق عنها الرمزيون والسيرياليون ٠

نحن نرى أن الرومانتيكية لم يقتلها شىء ولا أحد ، وأن « قتلها » هذا هو ـ ببساطة ـ أمر غير ممكن ٠ وأضعف القول هنا هو أنها قد دخلت فى تراث الثقافة البشرية دخول المقتحم بقضه وقضيضه ، فلم تكد تترك من هذه الثقافة البشرية جانبا الا وأحدثت فيه أثرا باقيا ، وان تباينت درجات الوضوح ٠ لقد كانت الثورة الفرنسية رومانتيكية الفكر ، فهل انمحت آثارها من حضارة البشر ؟ لقد كان الأدب الرومانتيكى مجرد جانب من تغير ثقافى ـ بمعنى الثقافة الشامل كما هو فى علم الاجتماع ـ رومانتيكى ، أبرز ما يميزه هو الدعوة لتحرير الفرد وكل مظاهر حياته وتعبيره من قوالب التقليد التى يفرضها المجتمع ٠ والدكتور نفسه يقرر أن الحركة ـ وأنا أفضل أن أسميها « التغير الثقافى الشامل » ـ هى على تناقض تياراتها تنبع من منبع واحد هو « روح الفردية » ٠ ونحن نتفق مع الدكتور فى هذا القول تماما ، لأنه صحيح تماما ، ولأنه يثبت بصورة قاطعة أن الرومانتيكية مازالت حية ترزق فى عالمنا هذا المعاصر ، بعد أن خرجت من رحمها اتجاهات أدبية عديدة تحمل طابعها المميز الذى يتجلى فى احترام الفرد وحريته والثورة من أجل هذه الحرية ٠

والا ، فكيف نصنف باسترناك السوفييتى ، وجيورجسكو الرومانى الذى يرسل لهب السخط المكتوم على ضياع كينونة الفرد فى روايته «الساعة الخامسة والعشرون» ، وكروم ستاينبك الغاضبة ، ووداع همنجواى للسلاح ، واستشراف امرسون وثورو فى القرن ١٩ وادوارد كمنجز فى القرن العشرين ، وغريب كامى الذى يبحث عن ذاته الضائعة وغير هؤلاء كثيرون ٠٠٠ يضافون الى من ذكرهم الدكتور نفسه فى القسم الثالث من مقاله ٠

وملاحظة أخرى تثيرها هذه النقطة: اذا كان الدارسون قد اتفقوا ، ووافقهم الدكتور ، على أن الرومانسية تدل على كل ما يرجع الى أوربا المسيحية فى العصور الوسطى ، فكيف يمكن التوفيق بينها أو مرادفتها مع « الرومانتيكية » التى تميزها الدعوة الى تحرير الفرد أو « روح الفردية »؟ لا شك أن هذا أمر يعجز عنه مؤرخو تطور الفكر الغربى جميعا لأسباب لا تخفى على كل من يلم بهذا التطور ، لأن « زحمة التقليد » هى الطابع المميز لأوربا المسيحية فى العصور الوسطى ، وهى أيضا الطابع المميز «لرومانسية» هذه العصور ولأدبها الرومانسى ٠٠٠ وهنا نحس أننا قد بدأنا ننزلق الى المناقشة الأكاديمية ، فنكف ٠

بعد هذا يقرر الدكتور أن الكتاب يورد أعمال طائفة من الشعراء الرومانسيين وزعوا على الصفحات بلا قاعدة معينة وبلا حساب تاريخى ٠٠ ثم يشير بعد ذلك مباشرة الى أن الأستاذ محمود محمود أحد المراجعين يقرر فى التصدير أن القصائد اختيرت اساس جمالى من جهة وتاريخى من جهة أخرى ٠ فكيف اذن لا توجد قاعدة معينة ولا حساب تاريخى ؟

فلنوضح الأمر ٠ لقد اخترنا نماذج من انتاج كل شاعر وجمعناها بالترتيب التاريخى لصدورها بين أعمال الشاعر نفسه ٠ أما الأساس الجمالى فقد روعى فى ترتيب الشعراء حسب الأهمية التى يضفيها النقاد على مكانتهم من الحركة الرومانتيكية فى الأدب الانجليزى ٠ ولهذا جاء وردز ورث الذى ولد عام ١٧٧٠ قبل بليك الذى ولد عام ١٧٥٧ مثلا ٠

ولعل القاعدة والحساب قد اتضحا الآن ، ولعله كان يحسن ايراد هذا الايضاح فى الكتاب نفسه ٠

أما الترجمات المكررة التى أشار اليها الدكتور ، فاحب أن أذكر أن الدكتور مصطفى بدوى نفسه قد راجع ترجمة قصيدة وردزورث « على جسر وستمنستر » وأقرها ، رغم سبق ترجمته هو نفسه لها ضمن كتاب « العلم والشعر » لريتشاردز ، كما أشار الدكتور ٠٠ ولم يتمهنا الدكتور بدوى بالكسل ! وهنا أحب أن أقرر أنه ليس من حق الدكتور زكى أن يصمنا بالكسل ، فما هكذا يكون العرض ولا النقد ، خاصة وأنه قبل أسطر قليلة يذكر أننا حرصنا على شرح ما غمض من اشارات ميثولوجية أو تاريخية أو أسماء ٠ ولو كنا من الكسالى لما تجشمنا هذا العناء ٠

ولا أظن أن حرص الدكتور على التجريح هو الذى حدا به الى أن يبدأ باتهامنا بالكسل ، ثم يعقب ذلك بذكر التفسير الصحيح وكأنه مجرد تبرير جائز يتفضل به علينا لانتشالنا بعد أن أغرقنا اتهامه ، فيقول ان من الممكن ارجاع الاختلاف فى نقل المعانى الى اختلاف وجهات النظر فى الفهم والنقل٠ مرة أخرى ، ما هكذا يورد العرض ولا النقد الموضوعى ٠٠ فالكتاب قد كلفنا شططا من الجهد ، وليجرب من شاء أن يعيد ترجمة « البحار العجوز » لكولريدج ، أو « كتاب ثل » لبليك ٠

واذا كنا قد حرصنا على الرد على مقال الدكتور ، فما ذلك الا لمكانته من نفوسنا ككاتب جاد يحسب لقوله ألف حساب ، أما الأثر الباقى فهو سعادتنا بما شاع فى سطور مقاله من تقدير نعتز به ٠

محمد على زيد

عودٌ إلى مقال الاتجاهات المعاصرة في الفلسفة

بقلم
عبد الفتاح الديدي

سينقسم هذا العرض لكلام الدكتور زكريا ابراهيم الى قسمين زيادة في التحديد : قسم يشرح كل مالم يرد نقدا للكتاب مباشرة وقسم يواجه النقد المباشر . وهذا التقسيم ضرورى كما سنرى لتعلق نقد الدكتور بأشياء بعيدة كل البعد عن الكتاب. وبالاضافة الى تعليقنا السابق نكون قد استكملنا كل جوانب الموضوع .

القسم الأول :

١ ـ لقد كنت في الواقع شديد الثقة بكلام الدكتور زكريا ابراهيم كما أننى كنت شديد الثقة أيضا بقدرة القارىء على التمييز والموازنة. ولكن لا مانع من أن أقوم بدور بسيط لمجرد الارشاد والتوجيه للقارىء وسط هذا البحث الشديد اللهجة الذى الفه الدكتور زكريا .

فمثلا ارجع الى (ص ٢٥ من العمود الأول) وستجده يقول : «واذا كان الاستاذ الديدى قد شاء أن يحدثنا عن فلسفة ألكييه فقد كان من الواجب عليه أن يتعرض لتحليل موقفه الفلسفى ... الخ .. الى أن يقول : « ولو تريث الاستاذ الديدى قليلا لاستطاع أن يتحقق من أن أسم الكييه لا يدخل تحت باب الفلاسفة الانسانيين بل هو يدخل في باب « فلسفة النزعة الروحية الفرنسية » ... الخ ... حتى يقول (في ص ٢٦ العمود الأول) « ولسنا ندرى كيف ساغ للاستاذ الديدى أن يضع تحت اسم فلسفات انسانية آراء الكييه و السيريالية ... »

ولا أظننى قد فعلت ذلك. ويستطيع اى باحث أن ينظر في كلامى عن الفلسفة السيريالية فيعرف أنى تعرضت للسيريالية من خلال كلام الكييه في كتابه . **اى أننى لم أتعرض رأسا لألكييه** . وعلى ذلك فأنا لم أضعه فى عداد الفلاسفة من ذوى النزعة الروحية الفرنسية . **ولكننى وضعت الفلسفة السيريالية ذاتها في ذلك الاطار الانسانى** . وهذا أضعف الايمان لأننى حاولت أن أحافظ عل رأى الكييه الهام جدا (وقد ذكرته فى البحث) فى أن السيريالية فلسفة صناعية صادرة عن محترفين وتوضع جنبا الى جنب مع أكبر الفلسفات مثل فلسفات كانط وهيجل .

فأنا لم أسلك الكييه فى عدد أى مذهب وانما وضعت السيريالية بين الفلسفات الانسانية علما بأن الاستاذ جوسدورف الذى رجع اليه الدكتور زكريا في كتابه عن «مشكلة الفلسفة» المذكور في المقال أشار الى هذه الفلسفة السيريالية (ص ٩٨ من كتاب بحث في الميتافيزيقا) على أنها لم تكن غير ذات تأثير على تفكير كل من كامو وسارتر . **وعلى ذلك فلا موضع** لكلام الدكتور زكريا ابراهيم عن الكييه .

الروحية ... الخ » **ولعلى تناولت الكييه بالتوضيح اكثر مما ظن الدكتور انى قد فعلت خلال بحثى عن الندم بين كامو وسارتر** وأثناء حديثى عن كتابه « وحشة الوجود » الذى يترجمه الدكتور « بالحنين الى الوجود » خطأ .

٣ ـ يتحدث الدكتور (في العمود الثانى من صفحة ٢٣) عن صلة الوضعية المنطقية بالفلسفة الظاهرية فيقول : ومن العجيب أن الاستاذ المؤلف يتحمس بشدة لفلسفة الظواهر **فى حين أن الشقة ليست ببعيدة بينها وبين الفلسفة الوضعية المنطقية** . وقد تأثر الكثير من فلاسفة الوضعية المنطقية ـ وفي مقدمتهم كارناب ـ بفنومنولوجيا هوسرل فضلا عن أن الوضعيين المنطقيين قد اتفقوا جميعا مع هو سرل على ضرورة احالة الفلسفة الى « علم دقيق صارم » .

وأنا لا أعلم أن هناك شبها ما بين الفلسفتين . وحبى وتقديرى للدكتور يحتمان على أن أنبهه الى خطورة هذا التعبير الذى أعتقد أن الدكتور لا يمكن أن يكون قد عناه وان كانت الألفاظ قد انحدرت من فمه على هذا الوجه . فالظاهريات علم صارم دقيق في معنويات الفلسفة ومهامها وقيمها ومبادئها ومفهوماتها وحدودها وتاريخها ولا أخال أن هذا الميدان هو حقل الوضعية المنطقية بحال من الأحوال .

والظاهريات تريد أن تزرع العلم في قلب الميتافيزيقا وأن تحيل الميتافيزيقا الى علم صارم وثيق الصلة بالحقيقة العلمية وشديد الشبه بحقائق العلوم الموضوعية بحكم استقاء كل ثقة موضوعية من الذات. وليس من السهل أن يقال ان الكثيرين من الوضعيين المناطقة قد تأثروا بهو سرل لأن هذا اذا صدق على كارناب فمن باب واحد وهو باب العلاقة بين المنطق وبين الرياضيات ومفهوم الرياضة فيما يتعلق بأصناف الحساب المعتمد على القضايا . وهذا هو ما دفع بكارناب الى التخلص من موقف وتجنشتين الذى لا يزال

ممولا به مع الأسف في الاتجاه لوضعى المنطقى عندنا فى مصر .

راجع مقالنا عن لغة التحليل ظاهرية الكلام في مجلة « المجلة » ندد شهر يونيو ١٩٦٦) .

ومن الأوليات المعروفة أن اهتمام الظاهرية بالالفاظ ليس من قبيل هتمام الوضعية المنطقية بها. وبطبيعة الحال نحن نساند كمشتغلين بالظاهرية كل الاتجاهات التجريبية لتى تعمد الى خدمة اللغة وفقه اللغة وأصول التراكيب سواء صدرت من لذاهب الوضعية المنطقية أو غيرها.

٤ – ملأ الدكتور زكريا ابراهيم صفحة ٢٤ بكلام طويل عن مهمة الفلسفة من وجهة نظره حسب التعريف الذى أعطاه لها معتمدا على كتابه « مشكلة الفلسفة » (طبعة ثانية ص ١٦٠) . اذ يقول الدكتور « الواقع أن الفيلسوف انما هو ذلك « الانسان الكلى » L'homme Universel ... الخ ..

ولم أملك أمام هذا التعبير سوى الابتسام لما يأتى :

١ – فلاشك أن الكلام عن الانسان الكلى هو تحديد لنوعية الانسان عامة لا الفيلسوف بخاصة . فالكلى كما يقول الساوى في البصائر النصيرية (ص ٧) هو الذى معناه الواحد في الذهن يصلح لاشتراك كثيرين فيه كالانسان والحيوان » .

٢ – الكلى كما هو واضح يدل على قسم ينقسم والانسان الكلى لا انقسام فيه من حيث هو معنى في الذهن يصلح لأن يقال عن كل انسان فيلسوفا كان أو غير فيلسوف . والشرط الأساسي الذى يقوم عليه التعريف هو أن يكون ما صدق الكلام الذى يعرف الشيء والشيء المطلوب تعريفه واحدا. ومن الواجب من أجل الدقة فى التعبير أن نقصر الاصطلاح (جزئى وكلى) على القضايا كما جاء بكتاب الدكتور عبد الرحمن بدوى عن المنطق الصورى (ص ٥٣) .

الفلسفة ص ٩٨ – ١٠٠) ورجعت اليه فوجدته يقول ان **الفيلسوف** هو رجل الشمول I'homme de La Tetalite اى الرجل ذو النظرة الشاملة الذى

٣ – عندما رجعت الى كتاب الدكتور زكريا ابراهيم عن مشكلة الفلسفة وجدته يشير الى مرجع هذا التعريف وهو كتاب جوسدورف السابق الذكر (كتاب بحث في ينزع نحو البحث الاجمالى أو أو الدراسة المجملة . وشتان بين تعبير وتعبير . وآسف اذ المس هذا الموضوع ولكننى افضل أن يعود الدكتور الى مراجعة كتابه بهذا الصدد .

٥ – ولاشك في أننى سعدت بكلام الدكتور زكريا ابراهيم عن باشلار رغم حدته المدرسية . وأنا أرحب بملاحظاته وان كنت أعدها بعيدة عن مجال البحث ولا علاقة لها بالكتاب.

يقول الدكتور زكريا ابراهيم : « ومن العجيب أن الاستاذ الديدى» يترجم كلمة Seus الفرنسية التى جرت على قلم الاستاذ هيبوليت في أحد المواضع بلفظ حس دون أن يفطن الى أنه قد استخدمها بمعنى تصور Concept كما هو الحال عند هيجل فيكون المقصود بها هو المعنى لا الحس . وبهذه الترجمة وحدها تستقيم عبارة باشلار الواردة بكتاب الاستاذ الديدى في الصفحة رقم ١١٤) . (ص ٢٩ عمود ٣).

ولكى يكون الامر واضحا أحيل الى بحث هيبوليت ضمن الابحاث التى كتبت فى كتاب مستقل عن باشلار (ص ١٧ – ١٨ المطابع الجامعية سنة ١٩٥٧) . وأنا لا الح في أن اطلب الى الدكتور ايضاحا لهذا الكلام . وان كانت لى اعتراضات عليه فهى كالآتى :

أولا : ماالذى يفرض على باشلار الفرنسى دلالات الالفاظ فى اللغة الالمانية وبخاصة عند هيجل ؟ وماالذى يفرض على باشلار في نظرية العلم تعبيرات هيجل في المنطق الذاتى ؟ اذا لم يكن هذا اكتشافا جديدا فلا مفر لك من تبريره !!

ثانيا : ماالذى يقيد تفكير باشلار هنا بتفكير هيجل (سنة ١٧٧٠ – ١٨٣١) ؟؟! وما الذى يمنع هيبوليت من استخدام لفظة تصور محل لفظة حس مباشرة دون تورية ؟

ثالثا من المعروف أن هيجل يعتبر الوعى بجزئيه الحسي والتصورى كيانا موحدا . وهذا هو سر تعبير هيبوليت بهذه الصورة التى أشار اليها الدكتور بصدد هيجل . **فماذا يلزم باشلار بهذا المفهوم للوعى ؟** . فهيجل يتكلم هنالك عن المنطق الذاتى الذى يعتمد على الوعى بمعنييه الحسى والتصورى ويتحدث هنا باشلار عن درجات المحسوس فى اطار المفهومات الظاهرية التى تجعل الموضوعية المشتقة من القصد مصدر الدلالة على العلاقات المحجبة وعلى التعقيدات الوظيفية القائمة بالفعل . واذا كان كلام هيبوليت هنا متعلقا باستخلاص ماهوية خط السير الرياضي داخل النظرية الفزيائية بوصفه ماهوية مشروعة للمعطى الحسي فما علاقة هذا بتفكير هيجل ؟

رابعا : ماالذى يستدعى من هيبوليت أن يتحدث عن فلسفة باشلار بنفس مصطلحاته التى اعتاد استخدامها بصدد كلامه عن هيجل ؟

خامسا : ماراًيك أن هيبوليت أشار عقب هذه النقطة بالذات (ص ١٨ س ٣٥) الى اقتراب باشلار هنا من هوسرل وابتعاده عن فلسفات الشمول (هيجل) وقال ان باشلار يرفض الانتماء اليها (أعنى الى فلسفات الشمول) .

القسم الثانى :

وبقى أن نتناول الآن مايمس الموضوع مسا مباشرا ..

١ – يتعجب الدكتور (صفحة ٢٤)

للتناقض الشديد بين ايماننا بأن الفلسفة مهنة أو حرفة تستلزم التخصص وتتطلب استكمال بعض القدرات الخاصة وبين قولنا أن مهمة الفلسفة الاولى هى الاستجابة لمطالب الناس العاديين **مع محاولة حفظ التوازن بين الاتجاهات العامة والبحوث الخاصة .**

تقول : « كيف يمكن أن يدرك الفعل أو الفكرة الانسانية في حالة « On مادامت هى نفسها مبدئيًا عملية في صيغة الشخص الاول لاتنفصل عن « أنا » .

ولامعنى اطلاقا هنا في الشك فيأن ميرلوبونتى لايعرف لكلمة On معنى آخر سوى نحن . وفوق هذا لم اجد الدكتور على حق في أى ترجمة اختارها كبديل لترجماتى الخمس التى أشار اليها . بل على العكس أحسست بأن الدكتور يتعسف في فهم أفكار ميرلوبونتى تعسفا لايتمشي مع جوهر تفكيره أومع طبيعة لغته أو حقيقة مقاصده . وفي النص الذى ترجمته على النحو التالى « انني لم المس في الشيء الحضارى الحضور التالى للآخر تحت قناع مجهول الاسم » وعلق عليه الدكتور قائلا : « ولا نرانا فى حاجة الى القول بأن كلمة « التالى » هنا لاتعنى شيئًا على الاطلاق » . واستأذن الدكتور هنا بأن أقول له هل جاءت لفظة « شيء حضارى » في **المفرد** أم في الجمع ؟ لو جاءت في صيغة الجمع لتقبلت فهم سيادتك للنص بكل سرور . غير أن الشيء الحضارى هنا يتوالى أمام لمسي فيوحى الى كل مرة بحضور لآخر معين تحت قناع مجهول الاسم . هذا هو معنى النص فيما أظن . ولم يحدد هذا الفهم لدى الاكلمة شيء حضارى الواردة في صيغة المفرد . والله أعلم .

٥ ـ أما لفظة الناسلية فأنا على اعتقاد راسخ بأن الدكتور لم يشأ هنا الا أن يكون حريصا على استخدام لفظ أثير لديه وهو لفظ تكوين . يقول الدكتور : «والاصطلاح الاجنبى لايمت بأدنى صلة الىمعانى النسل والتناسل والناسلات بلهو في الاصل مشتق من اللفظ اليونانى جينيزيس ومعناه الصيرورة والانتاج ... فقد اصطلحنا منذ زمن بعيد على ترجمة كلمة جينيز بالتكوين . فلا مانع مطلقا من الحديث عن المنهج التكوينى (ص ٢٩ عمود ٣) .

وانا أرجع الىقاموس بيلوهالفرنسي العربى (ص ٢٨٠) فأجده يضع أمام هذه اللفظة مايلى : تولد عنصرى ـ تكون ـ تولد ـ أصل . وحتى لو أصغيت لكلام الدكتور عن المعنىالذى أورده وهو الانتاج فماذا يقصد هنا بالانتاج ؟ لااظن المقصود هو الانتاج الزراعى أو الصناعى بل الانتاج العضوى . واذا استبعدنا لفظة الناسلية فلابد من استبعاد معنى

الارتباط بالاصل النوعى وبالتطور لان لفظة تكوين لاتسع شيئا من ذلك اطلاقا . **ثم ان جينيتيك تشير الى علم الوراثة وتناقل الصفات الخلقية** فأين هذا من اصطلاح **التكوين** . (**انظر قاموس لاروس**) .

٦ ـ كلمة أخيرة يسوقنى اليها تفكيرى حول موضوع **الكلمة الاولى** في أى بحث من الابحاث . فمعظمهذه الدراسات التى قدمتها يندر أن يكون قد تعرض لها أحد من قبل . والكلمة الاولى في الموضوع لايكون لها سابق . وهى تقابل صعوبات شتى . وقد تعرف الدكتور على بعض هذه الصعوبات في مقاله النقدى للكتاب . غير أننى كنت أطمع في الواقع فى أكثر من هذا الاهتمام الذى أعطاه للكلمةالاولى . فالصعوبة إلتى يلقاها الكاتب في **مجالات** اقتحامه تتطلب من الناقد بعض الحرص على تنوير القارىء تنويرا يفهم منه التقدير الحقيقى للجهد المبذول . وذلك ضرورى من أجل الاستمرار في اقتحام المجالاتالجديدة دون تخوف ودون اشفاق وبايمان ضخم حقيقى برسالة المعرفةالخاصة بالرجل الشامل ذى النظرة المجملة.

مع اصدق التمنيات
عبد الفتاح الديدى